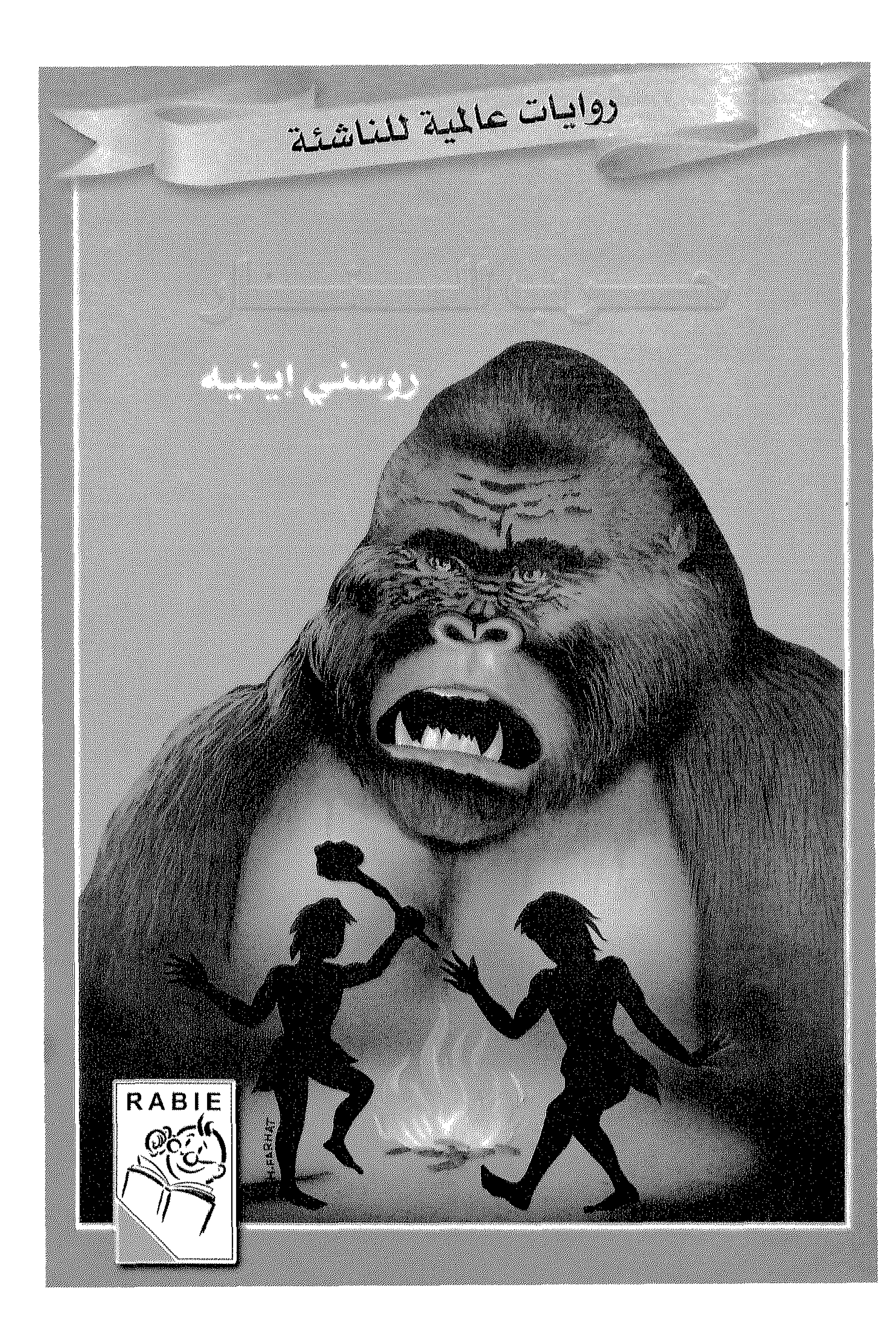

روايات عالمية للناشئة
روسني اينيه
RABIE
H.FARHAT

روايات عالمية للناشئة

حرب النار

حرب النار

(روسني إينيه)

1856 –1940

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشــــراف : محمـــد كمـــــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



الجزء الأول

1 - موت النار

أخذ آل أولمار يهربون في الليل خائفين ، وقد جن جنونهم من الألم والإرهاق ، فكل شيء لا فائدة منه بعد هذه الكارثة العظمى :

– لقد ماتت النار . كانوا يقومون على رعايتها في ثلاثة أقفاص منذ نشأة العشيرة ، إذ يسعرها أربع نسوة ومحاربان ليل نهار .

منذ أزمان موغلة في القدم ورثت المادة التي تبعث فيها الحياة ، إذا أُبعد عنها المطر والعواصف والفيضانات ، وقد عبرت الأنهار ، واجتازت المستنقعات ، ولم تتوقف عن الاشتعال لا في الليل ولا في النهار . وكان وجهها المهيب يطرد الأسد الأسمر ، والأسد الوردي ، ودب المغائر ، والدب الرمادي ، والماموث ، والنمر ، والفهد . وتحمي أسنانها

الحمراء الإنسان من العالم الرحيب . ويحيا الفرح بقربها ، وتستخلص من اللحم رائحته الشهية ، وتقسّي أطراف الرماح ، وتفجر الصخر الأصم . وبجانبها يحس الإنسان بالدفء والقوة في أطرافه . وهي التي تحمي العشيرة في الغابات المضطربة ، وفي السهوب الشاسعة ، وفي أعماق المغائر . فهي الأب ، والحارس ، والمنقذ الأشرس من الماموث حينما تهرب من القفص وتلتهم الأشجار .

لقد ماتت . فالعدو هدم قفصين من أقفاصها ، وأثناء الهزيمة رأوها في القفص الثالث تشحب ، وتضعف وتتلاشى . فكانت من الضعف بحيث لا تعض بأنيابها العشب الضئيل ، وتضطرب كأنها دابة مريضة . وفي النهاية أصبحت كالحشرة الحمراء التي يقتلها هبوب الريح ... ثم أغمي عليها . وهرب آل أولمار ناجين بأنفسهم في ليلة خريفية لا نجوم في سمائها التي ألقت بثقلها على المياه .

وكنت تسمع الحيوانات والرجال والنساء والأطفال يبتلعهم الليل ، ويتبعون صوت الرواد الذين يرشدونهم إلى أرض أخرى .

سارت على هذا الدرب ثلاثة أجيال تستهدي بخفقان النجم ، وعند بزوغ الفجر ، وصلوا إلى السهوب .

النور الضئيل يسعى إلى التخلص من ثقل الغيوم ، والريح تعصف فوق المياه الراكدة ، والطحالب تتمشى خلالها السرطانات .

وقف مالك الحزين فوق شجرة محترقة ، وظهرت له النباتات ترتجف رؤوسها برداً تحت ضباب وردي ، حتى اتساع المدى .

اجتاز الرجال حقول القصب ، فوصلوا إلى العشب فوق الأرض الصلبة . هناك سقطت عليهم حمى الموت ، وأصبح الكثير منهم دواب لا حراك فيها .

وانهاروا على الأرض وغرقوا في سبات عميق . وقاست النساء أكثر من الرجال . أما اللواتي فقدن أبناءهن في المستنقعات ، فيزأرن كأنهن الذئبات .

لقد أحسوا بانحلال العشيرة وغدها الأسود ، وأما الذين أنقذوا صغارهم فرفعوهم نحو الغيم .

حين بزغ النور من جديد ، جعل (فاوهم) يعد قبيلته مستخدماً أصابعه وبعض الأغصان ، وكل غصن يمثل أصابع يديه الاثنتين . كان يخطئ في العد . ولا حظ أنه بقي أربعة غصون من المحاربين ، وستة غصون من النساء ، وحوالي ثلاثة غصون من الأطفال ، وبعض الشيوخ . وقال (غوان) الشيخ الذي يحسب أفضل من الآخرين : إنه لم يبق سوى رجل من خمسة ، وامرأة من ثلاث ، وطفل من غصن . وحينئذٍ أدرك الشيوخ عظم الكارثة ، وعرفوا أن سلالتهم مهددة من أصلها ، وأن قوى العالم أصبحت مهيمنة عليهم ، وسوف يتجولون ضعافاً عراةً في الأرض .

وعلى الرغم من قوة فاوهم فقد أصابه اليأس ولم يعد يثق بضخامة جسمه ، ولا قوة عضلاته وظهر الإرهاق على وجهه المغطى بالشعر الكثيف وعلى عينيه الصفراوين كعيني الفهد . وتفقد جروحه التي أصابته ، وكان يشرب على دفعات الدم النازف منها .

وتذكر مثل كل المهزومين ، تلك اللحظة التي كاد أن ينتصر فيها . فقد كان يهرس الرؤوس بهراوته وكادوا يفنون الرجال ، ويخطفون النساء ، ويقتلون نار الأعداء ويصيدون في سهوب جديدة ، وغابات لا حد لها . فما تلك الريح التي مرت عليهم ؟ ولِمَ هزموا ؟ ولماذا تكسرت عظامهم ؟ وبقرت بطونهم وحشرجت صدورهم حشرجة الموت . على حين يغزو العدو ديارهم ويدمر النيران المقدسة ؟ هكذا كانت روح فاوهم تتساءل وهي مثقلة بالأحزان مولعة بذكرياتها كأنها ضبع مولع بفريسته . ولم يكن يريد أن يترك زعامة القبيلة ولكنه لا يحس بالقوة والشجاعة . أشرق النور على

السهوب فأحس فاوهم أن نوراً يولد في نفسه . واستعرض قبيلته :

– لقد حلت بها الكارثة فالوجوه صفراء ، أو تسيل دماؤها ، ورائحتها تملأ الأفاق ، وقد انتشر الرجال على الأرض صرعى كأنهم أنهار جفت مياهها .

رفع فاوهم يديه إلى السماء وزأر طويلاً :

– ماذا يفعل آل أولمار دون نار ؟ وكيف يعيشون في السهوب والغابات التي تحميهم ضد الظلمات وبرد الشتاء ؟ وهل يأكلون اللحم نيئاً والحشيش مراً . ولا يدفئون أجسامهم ، وهل تبقى أطراف رماحهم لينة ؟ فالسبع ذو الأنياب الحادة ، والدب ، والنمر ، والضبع الكبير ، سيفترسونهم أحياء أثناء الليل . ومن يملك النار سيكون شقيق فاوهم ، وله ثلاثة أسهم من الصيد وأربعة أنصبة من الغنائم .

نظر فاوهم يتأمل المحاربين من بني قومه بأجسامهم الضخمة ورؤوسهم الكبيرة والشعر الكثيف على صدورهم ، وبشرتهم اللامعة التي لوحتها الشمس . وكان يعرف أن حاسة

شمهم تعادل حاسة الحيوان أو تفوقها رهافة ، وجمال رجالها وفتياتها ظاهر في أبنائهم . وكانت ابنة أخته (جملا) أجمل بنات القبائل من هذا العصر الحجري القديم .

فأعلن للجميع أن من يعيد النار إلى العشيرة سوف يزوجه ابنة أخته وتكون له الزعامة من بعده .

نهض نوح بن الفهد وقال :

- أعطني محاربين اثنين سريعي الجري وأنا أمضي لأجلب النار من أبناء الماموث أو لدى آكلي البشر الذين يصطادون على شاطئ الدلتا .

لم ينظر إليه فاوهم نظرة تشجيع . وكان نوح أضخم شباب العشيرة وما تزال قامته تشتد وتنمو ولا يماثله محارب آخر في سرعة عدوه وقوة بطشه وقد طرح أرضاً (مواه) بن (أوروس) الذي تقارب قوته قوة فاوهم . وكان فاوهم يخشاه فأرسله في كثير من المهمات الخطيرة لكي يبعده عن العشيرة ويعرضه للموت .

لم يكن نوح يحب الزعيم ، لكنه ابتهج برؤية الفتاة جملا وكم كان يراقبها وهو مختبئ وراء غصون الأشجار ، ويحس نحوها بحب شديد يكاد يدفعه إلى أن يصرعها بضربة واحدة من قبضة يده الضخمة . ولو كانت زوجته لعاملها بمنتهى اللطف والحنان .

لو كان الظرف مختلفاً لما قبل فاوهم كلام نوح ولكنه ينوء تحت ثقل الكارثة ، ولعل تحالفه مع ابن الفهد يعينه على الخروج منها وإلا لكان قتله وتخلص منه ، فالتفت إليه وقال :

– فاوهم له لسان واحد ، وإذا جلبت النار أخذت جملا دون فدية أو مقابل ، وستكون ابن فاوهم .

كان يتكلم ويده مرفوعة بثقة وصلابة ، ثم أشار إلى جملا فدنت مضطربة وعيناها مملوءتان بالدموع وهي تعرف أن نوح يراقبها من وراء الأشجار وقت حلول الليل ولم تكن تحس نحوه بالكراهية ولكنها تتمنى لو قتله آكلو البشر . ولكن بعد أن يجلب النار . وضع فاوهم يده الثقيلة على كتفها وقال :

– ليس من بنات البشر من هي في مثل جمالها وقوتها فهي تحمل وعلاً على كتفها . وتمشي دون تعب من شمس النهار حتى شمس الليل وتتحمل الجوع والعطش وتهيئ جلد الحيوان وتقطع البحيرة سباحة . سيكون أبناؤها أقوياء لا يقهرون . وإذا جلب نوح النار فسوف يأخذ جملا دون أن يقدم الفؤوس أو القرون أو الأصداف أو الفراء .

حينئذٍ تقدم (آغو) بن (أوروك) وهو أكثف آل أولمار شعراً وقد ملأت الغيرة قلبه :

– يرغب آغو في جلب النار ويمضي مع إخوته ليتربص بالأعداء ما وراء النهر وسيموت بالفأس أو ناب النمر أو براثن الأسد الهائل ، أو يعيد إلى آل أولمار النار التي يظلون بدونها ضعفاء مثل الوعول .

ولم يكن يظهر من وجهه سوى شفتيه اللامعتين وعينيه الحاقدتين . وأما جسمه فكان ضخماً يوحي بالقسوة التي لا تعرف الخوف أو الرحمة .

ولم يكن أحد يعرف مدى قوته فهو لم يجربها مع فاوهم أو مواه أو نوح ، وكل ما يعرف عنه أنه ضخم الجثة ومن يقف في طريقه يموت أو يفقد أحد أطرافه . وهو يعيش منعزلاً عن القبيلة مع شقيقيه اللذين يشبهانه في كثافة شعره ، وعلى الرغم من أن شعار القبيلة الشدة مع أبنائها والقسوة مع أعدائها ، إلا أن أبناء (أوروك) يبالغون في تطبيق هذا الشعار . لذلك خشي الحاضرون من زعامتهم إذا جلبوا النار إلى القبيلة .

وتجمع آخرون حول نوح المعروف بحبه للانتقام ، ولكن هذه الصفة محببة لدى الضعفاء الذين لا يملكون قوة نوح .

لم يكن فاوهم يكره آغو أقل من ابن الفهد بل يخشاه أيضاً . فالإخوة الثلاثة كتلة صماء واحدة إذا أراد أحدهم الموت لشخص ما فهو مقتول لا محالة ، يعاونه أخواه على تنفيذ ما يريد .

حاول الزعيم التحالف معهم ولكنهم تملصوا منه وهم حذرون ، لا يعتقدون بكلام المخلوقات ولا بأعمالها ،

ولا يفهمون من لغة التخاطب سوى البطش والترهيب . وعلى الرغم من أن فاوهم يشاركهم هذه الصفة إلا أن له مزايا الزعيم ، فهو رؤوف بأنصاره يمدحهم إذا استحقوا الثناء ويتقرب إلى من حوله بالهدايا .

رفع فاوهم صوته عالياً ليجيب على اقتراح آغو :

– إذا استطاع ابن أورروك أن يرجع النار إلى آل أولمار فسيأخذ جملا دون فدية ، وسيكون الرجل الثاني في القبيلة يطيعه المحاربون في غيبة زعيمهم .

وجه آغو نظراته نحو جملا فتأملها لحظة ثم قال :

– ابنة المستنقع ملك لا بن أورروك ، وإذا وضع رجل آخر يده عليها أهلكته .

فأزعج هذا الكلام نوح وقبل التحدي وصاح :

– هي ملك لمن سيجلب النار .

آغو سيجلبها .

وتبادلا النظرات . لم يكن بينهما حتى هذا المساء سبب يدعوهما للقتال . وكل منهما يدرك قوة خصمه فلا يحتك به ولا يصيد معه . وقد زرع خطاب فاوهم الكراهية بينهما .

ولم يكن آغو لتلفت جملا نَظَرَهُ لولا أن عدَّد فاوهم محاسنها فثارت نوازع نفسه إلى امتلاكها وحكم على من يقف في طريقه بالموت الأكيد .

كان نوح يعرف هذا من نظراته إليها ، فأمسك فأسه بيسراه ورمحه بيمناه وهزهما أمام وجهه . حينئذٍ تقدم شقيقا آغو بهدوء وكانا يشبهانه شبهاً عجيباً ولهما لون الشعر ذاته ، ولكن عيونهما أكثر حدة وعضلاتهما أشد قوة .

كان الثلاثة مستعدين للقتل يتربصون بنوح .

ولكن ارتفعت بين المحاربين ضجة اعتراض . فلم يكن أحد يريد لنوح الموت بعد أن خطف الموت معظم رجال القبيلة وبعد أن وعد بجلب النار إلى الديار .

وكانوا يعرفون مواهبه الحربية وقدرته على إحياء النار ولو كان بصيصاً ضعيفاً فتلتهب من بين الرماد .

والحق أن آغو لا يقل عنه ذكاءً ومكراً ، لذلك فضلت القبيلة أن يكون لها محاولتان لجلب النار فهدَّؤوا غضب المتنافسين ووقف غوان شيخ القبيلة خطيباً فقال :

– هل يسعى آل أولمار إلى الاختفاء من الدنيا ؟ وهل ينسون أن الأعداء والماء قد قتلوا معظم محاربيهم ؟ ولم يبق من الأربعة سوى واحد . وينبغي أن يعيش كل من يقدر على حمل الرمح أو الفأس .

نوح وآغو من أقوياء القبيلة فإذا هلكا ضعفت القبيلة ، وأما بنت المستنقع فسوف تكون في خدمة من يجلب النار إلينا ، هذا قرار العشيرة . وارتفعت الأصوات موافقة على هذا الرأي .

وأما النساء اللواتي تضاعف عددهن بعد موت رجال القبيلة وظلت قوتهن على حالها لم يمسسها الموت ، فقد أعلنَّ بصوت واحد :

– ستكون جملا لمن سيجلب النار .

هزَّ آغو كتفيه الشعراوين وتأمل الحاضرين دون أنه ينطق بكلمة .

كان واثقاً أنه إذا التقى بغريمه فسوف يهزمه ، ويمحوه من الوجود .

وانتفخ صدره ثقة بنفسه واعتزازاً .

2 - الماموث وآل أوروك

مطلع الفجر الثاني هبت الريح قوية في العراء على حين كان الهواء على المستنقع ساخناً ذا رائحة .

انطلق أبناء أوروك مسلحين بالفؤوس والرماح ، والمطارق الحجرية . وأما نوح فقد فضل اصطحاب محاربين شابين قادرين على تحمل السير الطويل يحمل كل منهما رمحاً . وحمل نوح معه هراوة ضخمة من شجر السنديان . وغصناً قد عرضه على النار حتى اشتد عوده وهو يراه قادراً على قتل الحيوانات اللاحمة .

توجه فاوهم بالخطاب إلى آل أوروك أولاً فقال :

– لقد أبصر آغو النور قبل ابن الفهد وهو يختار الطريق أولاً ، فإذا انطلق إلى الدلتا مضى نوح إلى المستنقع نحو مغيب الشمس ، وإذا مضى آغو نحو المستنقع انطلق نوح نحو الدلتا .

واعترض آغو :

– آغو لا يعرف طريقه بعد . وهو يبحث عن النار . وقد يمضي نهاراً نحو الدلتا ومساء نحو المستنقع . فالصياد الذي يلاحق الخنـــزير هل يعرف أين يقتله ؟

فقال غوان شيخ القبيلة :

– ليبدل آغو طريقه بعدئذ . أما الآن فإما أن ينطلق نحو مغيب الشمس أو إلى الدلتا . عليه أن يختار .

في عمق نفسه المظلمة عرف ابن أوروك أنه قد أخطأ لا لأنه تحدى الزعيم بل لأنه نبه نوح إلى خطته . فصرخ ونظراته الذئبية تتحدى الحاضرين :

– آغو يمضي نحو مغيب الشمس .

وبحركة سريعة إلى أخويه . انطلقوا إلى المستنقع .

أما نوح فلم يبادر إلى الرحيل وإنما وقف يتأمل جملا التي ذهبت إلى الغدير بقامتها الممشوقة وشعرها الغزير المزين بعدة زهرات برية زادته جمالاً . اضطرب قلبه حتى حسب أنه سيختنق شوقاً لها وغضب على من يحولون بينه وبين جملا

سواء كانوا أبناء الماموث أو مفترسي البشر . فرفع يده المسلحة بالفأس وقال :

– يا بنت المستنقع لن يعود إليك نوح بل سيختفي في الأرض أو المياه أو بطون الضباع أو يأتي بالنار إلى آل أولمار وسيجلب كامل المحارات والحجارة الزرقاء وأسنان الفهود وقرون الثيران ، فنظرت إليه نظرة طفولية خفق لها قلبه ولكن فاوهم صرخ بنفاد صبره :

– اختفى أبناء أوروك وراء أشجار الصفصاف .

حينئذٍ توجه نوح نحو الجنوب .

مشى نوح وغاو ونام طول النهار في السهوب التي كانت أعشابها قوية تعبث بها الرياح فتتماوج رؤوسها كأنها بحر تمر عليه الريح ، وتعبق مياهه برياح عطرة . فالسهوب رتيبة في مجملها ثرية بالتفاصيل ، تعيش فيها الدواب كما تعيش الطيور والحبوب ونباتاتها الشوكية والبصلية والمتسلقة والزاحفة تضفي عليها صفة الغابة لو كانت ضخمة

الأشجار . وترى الألوان بين بنفسجي وأصفر وأحمر وأبيض ، تفتن الناظرين إليها وتخدعهم عن أخطارها .

إذ تعيش في السهوب حيوانات من كل الأجناس والفصائل . ففيها الغزلان والأرانب تتربص بها الذئاب والكلاب البرية ، وتحلق في الهواء أنواع الطيور كالحجل والحمام والغربان وتنتقل على صعيدها قطعان الخيول تهرول في كل اتجاه .

وترى الدب الرمادي له حركات القرد الضخم والكركدن الأقوى من النمر ، والأخطر من الأسد الضخم ، يتجولان على العشب الأخضر ويظهر في الأفق الثور ذو القرون المعقوفة .

استراح نوح ونام وغاو مساء قرب أكمة فلم يجتازوا إلا جزءاً قليلاً من السهوب . ولم يروا سوى أمواج نباتاتها والأرض مستوية متشابهة ، كئيبة تتحرك على ضوء الغسق مخلوقاتها من كل الأجناس .

أسودت الغيوم وبقيت في عمق الأفق بقعة قرمزية تلون الفضاء . وظهرت في السماء حجارة النجوم البراقة واحدة تلو الأخرى وتنفس الليل بعطر السكون .

لقد اعتاد نوح السهر أمام الجذع الملتهب في النار ، يشكل حاجزاً بينه وبين بحر الظلمات . وأحس بضعفه دونها إذا ظهرت الحيوانات المفترسة التي لا قوة للإنسان تجاهها .

تغذى المحاربون باللحم النيئ وكانوا يفضلون رائحة الشواء العطرة . ثم تولى نوح الحراسة وكان وجوده كله يتنفس الليل وتخترقه عناصر الكون ، ويصعد حتى النجوم يلتقط سمعه همس الريح ، وحفيف النباتات وطيران الحشرات والجوارح ، وخطوات الحيوانات ، ويخترق منخره عبير الزهور العاشقة ورائحة العشب الفرح ، ويستشعر جلده آلاف الأحاسيس من برد وحرارة ورطوبة وجفاف .

هكذا يعيش بما يملأ الفضاء والديمومة .

ولم تكن حياته مجانية بل صعبة عامرة بالأخطار ، وكل ما يهبها الحياة قد يرميها بالموت ، ولا بقاء لها إلا بالحذر والقوة والدهاء والصراع المتواصل ضد الأشياء .

وكان نوح يرقب الظلام الدامس ويفكر بالحيوانات المفترسة التي ترى في الإنسان حيواناً قوياً لا تهاجمه . فهذه الضباع تمر أمامه وأنيابها أمضى من أنياب الأسود ولكنها لا تحب خوض المعارك ، وتفضل لحم الجيف . ومرت أمامه عصابة ذئاب . وكانت خبيرة بقوة المخلوقات وكانت تعرف قوة الإنسان ، ولم يكن جوعها شديداً فتتعقب أثار بعض الغزلان ، ومرت أمامه الكلاب الشبيهة بالذئاب فكانت تنبح وتدور ولا تهاجم عدوها هجوماً مباشراً ، شكلت الكلاب حوله حلقة وارتفع نباحها فأثارت نوح فأمسك بقبضة تراب وضرب بها أكثر الكلاب جرأة وصرخ :

– معنا الفؤوس والحراب والهراوات التي تقتل الدببة والثيران والأسود .

وأصيب الكلب في خطمه وأدهشه كلام الإنسان فهرب . وبقيت الكلاب واقفة ترميه بنظراتها فصرخ بها :

– أنتم أضعف من أن تقاتلوا آل أولمار ! هيا ابحثوا عن حيوان يشبهكم وأي كلب منكم يقترب سأشق أحشاءه .

واستيقظ (نام) و (غاو) على صوت نوح وحين رأتهما الكلاب قررت الانصراف .

سار نوح سبعة أيام متجنباً أخطار العالم من حوله .

وكانت الأخطار تزداد كلما اقترب من الغابة . وعلى الرغم من أنها لا تزال على بعد أيام من المسير إلا أن بعض الأجمات دلّت على وجودها . ورأى آل أولمار النمر والفهدة الضخمة . وغدت الليالي أشد هولاً .

كانوا يعملون طول النهار ليحيطوا أنفسهم بالمتاريس تحميهم من الحيوانات ، ويبحثون عن الوهاد من الأرض والصخور والجحور ويتجنبون الأشجار . وقد قاسوا من العطش في اليوم الثامن والتاسع . وحين صار ظل اليوم التاسع

طويلاً شموا رائحة الماء . فتساقطوا من الهضاب ورأوا قطيعاً من الثيران الوحشية تسير نحو الجنوب فقال نوح لصاحبيه :

– سنشرب قبل غروب الشمس ، هاهي الثيران ماضية نحو الماء .

نهض نام وغاو وهما يحسان بالعطش الشديد وكان ينبغي أن يشعرا بالشجاعة والصمود للألم ومقاومته والثقة بزعيمهما الذي كان قد أسلماه قيادهما منذ الانطلاق ليواجها قوة الطبيعة . قال نوح :

– يجب الوصول قبل الثيران .

وحين وصلوا فوق الهضاب كانت الثيران متأخرة عنهم بألف ذراع . وصاح نام وغاو :

– إنه الماء . هذا الذي خلق منه كل شيء حي ، وهو أكثر فائدة من النار وأقل شراسة .

هلل المحاربون لرؤية الماء الذي صبغته الشمس الغاربة بلون البرتقال . وكان يروي عطش الغزلان ذات الأظلاف

الدقيقة والملامح اللطيفة وعطش التيوس ذات اللحى ، والضبيات المرتعشة كأنها ورق الشجر تهزه الريح .

وفجأة أرهفت هذه الآذان كلها لمجيء هذين الغريبين . وبسرعة هربت الغزلان والظبيات والتيوس ، ولم يبق سوى الخنـــزير ينظر بعينين براقتين من تحت حرير أهدابه . وكذلك الذئاب الصلبة المرتفعة القوائم ، ذوات العيون المتقاربة والنظرة الصفراء الصافية . رفع المحاربون رماحهم على حين أبرز الخنـــزير نابين أعوجين ، وزمجر بصوت مخيف . وأما الذئاب فكانت تقدّر قوة العدو بعيونها الماكرة وخياشيمها الذكية ، ولما رأته مخيفاً انطلقت لتصيد الهاربين .

ساد صمت بعد ذهاب الحيوانات . وشرب آل أولمار وجلسوا يتبادلون الرأي ، فالغسق قريب والشمس تنحدر وراء الصخور ، فهل الوقت متأخر لمتابعة الطريق أم المبيت أجدى ؟

قال نوح :

– إن الثيران تقترب .

ولكنه لفت رأسه نحو الممر الغربي وأنصت المحاربون الثلاثة ثم رقدوا على الأرض وهمهم غاو :

– ليس القادمون من هنا الثيران .

وأكد نوح :

– إنها الماموث .

وتفحصوا المكان بسرعة :

– فالنهر ينبع بين هضبة بازلتية وجدار من الصخور الحمراء وفيها أخدود يتسع لمرور وحش ضخم . فصعدوا إليه .

شاهد نام قبلهم مغارة منخفضة العمق متعرجة من الداخل . لم يدخل آل أولمار فوراً فقد أجالوا أبصارهم ، ثم سبق نوح رفيقيه وقد خفض رأسه ووسع منخريه فوجد رفات عظام وبقايا جلود وقرون . إن صاحب المغارة صياد قوي مخيف .

قال نوح :

– هذه مغارة الدب الرمادي . وهي مهجورة منذ قمر .

وتأكد نوح أن الحيوان لن يأتي هذه الليلة فقرر المبيت فيها . أثناء ذلك ارتفعت ضجة هائلة رددت صداها صخور النهر :

– لقد وصلت الثيران وزئيرها يفوق زئير الأسود الكاسرة .

وأصيب المحاربون برعب شديد من هذه الحيوانات الضخمة التي لا يقدر الإنسان على صيدها لقوتها وضخامتها وسرعة بطشها .

خرج الثلاثة من المغارة يتأملون هذا المشهد المريع . وقد رسخت في عقولهم البدائية عظمة هذا القطيع الذي يفيض بالقوة والجمال وأحسوا بمأساة وجودهم أمام قوة هذه المخلوقات ، ولم يستطيعوا التعبير هن هذا الإحساس لأن أرواحهم لم ترقَ بعد إلى مستوى الشعراء من الأجيال التالية عليهم .

وما كادوا يخرجون من مخبئهم حتى شق الفضاء صوت أعلى من أصوات الثيران كما تشق الفأس جسد الماعز . إنه

صوت أضخم المخلوقات التي تتجول على سطح الأرض ألا وهي الماموث . وكانت خلقته تخيف الأسد والنمر وتثبط همة الدب الرمادي . وما استطاع الإنسان أن يتصدى له إلا بعد آلاف السنين ، أما الحيوان الوحيد الذي يجرؤ عليه فهو الكركدن الأعمى الغبي .

والماموث رشيق سريع ، لا يتعب ، قادر على تسلق الجبال ، قوي الذاكرة ، يحرك المواد ويقيسها بخرطومه ويحرث الأرض بنابيه الطويلين ، وهو مدرك تفوقه على بقية المخلوقات .

كانت حياته سعيدة ، وهو أذكى من الفيل الذي سيستعبده الإنسان بعد انتصاره عليه .

وحدث أن وصل زعماء الثيران والماموث بآن واحد قرب الماء . أما الثيران الثمانية فكانت ضخمة ، صبرها قليل وعطشها كثير . ورأت أن الماموث تريد أن تمر قبلها فأطلقت صرختها الطويلة وانتفخت أوداجها .

وسدت الماموث عليها الطريق . كانت خمسة ذكور بالغة أجسادها كتلة ضخمة ، وأقدامها مثل جذع الشجرة . فكشرت عن أنياب طولها عشرة أذرع قد تخترق شجرة السنديان بضربة واحدة . وخراطيمها مثل الأفاعي السوداء الكبيرة ورؤوسها صخور ، وجلودها كقشور شجر الدردار . ووراءها القطيع يتبعها ولونه كالصلصال .

كانت عيونها الصغيرة اللامعة قد تركزت على الثيران . وقطعت الماموث البالغة الطريق عليها دون أن تبدأ بالعدوان .

لاحظت الثيران قوة العدو ، ولكن خوار القطيع زودها بطاقة جديدة فخفض كبيرها الزعيم جبهته ، وكان الشرر يتطاير من عينيه ، ثم اندفع كقذيفة فأصاب أقرب ماموث إليه .

ولو أنه استطاع أن يخترق جلد عدوه لانتصر عليه .

وأدرك الماموث ذلك فتجنب الطعنة بأعصاب هادئة ، فتوقف الثور عن الجري واستعد لهجمة ثانية .

لقد فاجأت المعركة الذكور الآخرين ، فوقف الأربعة من الماموث وسبعة الثيران وجهاً لوجه في انتظار رهيب .

ولم يظهر على أحد سواها أنه سيتدخل في المعركة ، وأبدى الماموث تحرقه للقتال فحرك أذنيه كأنهما الوطواط الضخم وزفر زفرة عالية واندفع إلى وسط الثيران ، فارتفع خوارها ثم اختلطت القرون بالأظلاف والرؤوس بالصدور .

في أول هجمة غلبت الكثرة العددية شجاعة الماموث .

فقد بطحت ثلاثة ثيران الماموث الأول ، ووقف الثاني جامداً في حالة دفاع ، أما الثلاثة الأخرى فأحرزت انتصاراً سريعاً إذ اندفعت ككتلة واحدة على عدوها فاخترقته وكتمت أنفاسه ، ومزقت أطرافه ، كان همهم أن يدوسوا الثيران بعد أن أسقطوها أرضاً . وحاول أحد الثيران أن يهب لنصرة إخوته ولكن الماموث الرابع صده ورماه أرضاً .

فنهض من سقطته وجرى هارباً . وحين أبصرته الثيران مولياً الأدبار تبعته وأخلت المكان .

لم تفكر الماموث بملاحقتها ، فقد أبدت مدى قوتها وبينت أنها المستبدة على هذه الأرض .

أما الحيوانات الأخرى فكانت ترقب المعركة من أطراف الهضاب وقد أفزعها القتال . ثم تأملت الماموث وهي تشرب هائئة ، ونظر إليها آل أولمار أيضاً وقد أصابهم الفزع ، وقارن نوح بين هذه الحيوانات الضخمة وبين نام وغاو فوجدهما هزيلي الأطراف ، نحيلَي الصدور ، على حين أن الماموث عالية كالصخور ، فأدرك صَغار الإنسان وضعفه والحياة المتواضعة التي يعيشها على سطح السهوب .

3 - في المغارة

كان القمر في الثلث الأخير من الليل يرمي نوره على الكون وتتراءى للعين ظلال الحيوانات الواردة إلى الماء ، وكانت الماموث قد غادرت المكان فلا ترى سوى حيوان زاحف ولا تسمع سوى حفيف طائر يصفق بجناحيه . كان غاو يحرس مدخل المغارة وقد نال منه التعب فيرفع رأسه لرؤية أي نور يلمع أو رائحة تهب أو صوت يرتفع ، وكأنما يعيش في دوامة تبتلع كل شيء ما عدا الإحساس بالهلاك وضرورة التمسك بالحياة . حينئذٍ ظهر في الناحية الثانية من النهر على قمة الهضبة شخص ضخم يمشي متثاقلاً متمايلاً على الجانبين ، كانت أطرافه ثقيلة ولكنها مرنة ، ورأسه ثابتاً قوياً ، أما فكاه فيشبهان فكي الإنسان شبهاً كبيراً وهو قريب المظهر من الدب .

يعرف غاو دب المغائر الضخم ذا الجبهة العريضة الذي يعيش آمناً في كهفه يتغذى بالأعشاب ولا يأكل اللحم إلا إذا عضه الجوع .

أما ما يراه يتقدم نحوه فلا يشبه دب المغائر . وتأكد غاو من ذلك حين مشى الحيوان تحت ضوء القمر فعرفه :

– إنه الدب الرمادي .

يذكر غاو الأساطير التي يرويها الذين سافروا في الأراضي العالية فالدب الرمادي يصرع الثور الوحشي ويحمله كما يحمل الفهد غزالة . وبضربة واحدة من مخلبيه يشق بطن الإنسان ويخنق حصاناً بين قائمتيه ويخيف النمر والأسد ، ويعتقد غوان شيخ العشيرة أن الدب لا يخاف إلا من الفيل الضخم أو الماموث أو الكركدن . لم يشعر غاو بالذعر المفاجئ الذي يحسه أمام النمر لأنه كان قد واجه دب المغائر وعرف مقدار قوته فزاده هذا شجاعة وثباتاً . ولكنه حينما رأى هذا الدب قرب الهضبة أسرع إلى زعيمه وبلمسة من يده استيقظ نوح وهو يقول :

– ماذا يريد غاو ؟

فأشار غاو بيده وقال :

– إنه الدب الرمادي .

تفحص نوح المغارة وقد جمع بعض الحجارة والأغصان وسدَّ مدخلها وربما استطاع إضافة بعض الصخور إليها ليصعب دخولها . ولكن فكر بالهرب ولم يكن الهرب ممكناً إلا من ناحية الماء . وإذا كان الحيوان سريعاً ولا يحس بالتعب وعازماً على ملاحقتهم فإنه يدركهم حتماً . ولم يبق سوى الصعود إلى الشجرة ، فالدب الرمادي لا يتسلق الأشجار ولكنه قادر على التربص أياماً . ولم يلمح نوح سوى أشجار ضعيفة الأغصان .

وهل رأى الحيوان غاو متحصناً وراء الصخور لا تصدر عنه حركة ؟ أم إنه ساكن هذه المغارة وقد رجع من رحلة طويلة ؟ وحينما كان نوح يفكر بهذه الأمور هبط الحيوان من الهضبة منحدراً . وما إن وصل إلى الأرض المستوية حتى رفع رأسه وشم الهواء ثم استأنف هرولته . واعتقد المحاربان أنه

سيبتعد ولكنه توقف أمام مدخل الشاطئ فاستحال عليه الهرب . أمامهما منحدر من الصخور عمودي لا يمكن استخدامه ، ووراءهما هذا الشاطئ الذي قطع عليهم طريقه هذا الدب فإذا هربا أمامه استطاع الوصول إليهما .

لم يبق أمامهما سوى أن يمضي الحيوان أو يهاجم المغارة .

أيقظ نوح نام وبدؤوا يدحرجون الصخور .

بعد قليل من التردد عزم الدب على اجتياز النهر . فمشى نحو شاطئه ، وكلما اقترب تبينت لهم ضخامته وأسنانه اللامعة تحت ضوء القمر .

كان غاو ونام يرتعدان من البرد ، وكان حب الحياة يعمر قلبيهما وغريزة الضعف البشري تكتم أنفاسهما . وشيء ما يرفرف في صدريهما كالعصفور الخائف . كان نوح يحس بالجزع أيضاً فهو يعرف عدوه وأنه قادر على قتلهم بلمح البصر فلا تؤثر في جلده الثخين وعظامه الغرانيتية رماحهم وفؤوسهم .

أنهى الرجال جمع الصخور أمام المغارة بعلو قامة رجل . وحين اقترب الدب هزَّ رأسه وزمجر فقد شم رائحتهم وسمع صوت عملهم . ولم يكن يتوقع أن يجد باب المغارة مغلقاً وقد قضى فيها فصولاً عديدة ، واجتمعت في رأسه صورة غامضة عن إغلاق المغارة ووجود الناس فيها وعرف أن الرائحة التي شمها لحيوانات ضعيفة وسوف تظهر بعد قليل ، فلم يتخذ احتياطه ولكنه كان مندهشاً .

تمطى تحت ضوء القمر معجباً بجلده ونفخ صدره عالياً وحرك فكيه وأحسَّ بالكآبة دون سبب فزمجر زمجرة مرتفعة . ووقف على قائمتيه الخلفيتين وكأنه رجل غزير الشعر ضخم الجثة قصير الساقين واسع الصدر ، وهجم على الفتحة أمام باب المغارة .

كان نام وغاو قد أمسكا فأسيهما مستعدين له ونوح بيده هراوة ضخمة وانتظروا أن يتقدم الحيوان لكي يطعنوا بطنه . ولكنه هجم برأسه المغطى بالشعر وشفتيه المزبدتين وأسنانه التي تشبه الرماح . وتوالت عليه ضربات الفؤوس

والهراوة ، فتراجع وهو يزأر . لم يكن مجروحاً ولم يسل الدم على وجهه ، وكأنما تعلم من هجمته هذه درساً فلم يشأ أن يدخل من الفتحة بل هجم على الحائط بكل جسمه فتزعزع تحت ثقله .

وهاجم الحيوان بكل أعضاء جسمه ، فدفع بكتفيه وخبط برأسه وجذب ببراثنه اللامعة .

كان نوح وغاو يصدانه بضربات الفؤوس والهراوة لئلا يجعل ثقله في ناحية واحدة فيهدمه ، وأما نام فقد وقف فوق صخرة يتربص لينتهز فرصة فيطعن عين الدب بسهم .

حين وجد الدب أن الحائط لم يعد يتزعزع توقف عن الهجوم ولم يفهم السبب ، وجلس على مؤخرته ينظر إلى الحائط ثم يمد أنفه ويتشممه . وكأنما أحس أنه قد خدع فزاد غضبه وهجم بكل قوته الحيوانية .

كانت الفتحة المكان الوحيد الذي ينفذ منه ، فرمى فيه جثته . فأصابته ضربة قاسية على جفنه ولكنها لم توقف هجمته بل ضاعفت شراسته فانهار الجدار تحت ثقله .

تراجع نوح وغاو إلى عمق المغارة ووجد نام نفسه تحت قوائم الدب الضخمة ، فلم يعد يفكر بالدفاع بل تماوت له وكأنه ظبية أمسك بها الفهد ، أو حصان صرعه الأسد ، ذراعاه ممدودتان وفمه مفتوح منتظراً الموت .

لكن نوح الذي فوجئ برهة استعاد توفز المحارب الذي يصنع الزعماء ويحمي القبيلة . وكما أن نام تمادى في تماوته تمادى نوح في كفاحه ، فرمى بفأسه لأنه لم يعد مفيداً وأمسك بكلتا يديه هراوة السنديان .

ورآه الحيوان قادماً إليه فترك الفريسة الضعيفة المطروحة تحت قدميه وجمع قواه لمواجهة هذا العدو مكشراً عن أنيابه ، وأصابت ضربة نوح فك الحيوان . وامتدت إلى أنفه فتأثر بها وزمجر متألماً ، وجاءته ضربة ثانية فوق رأسه الصلد . فهجم عليهما فهربا إلى عمق المغارة المظلمة ، وقبل أن يصل إليهما ابتعدا عن طريقه فاصطدم بالصخر فانهال عليه نوح ضرباً فكسر مخالبه وفكه على حين عمد غاو ونام إلى شق بطنه بفأسيهما .

وحينما توقفت الهراوة عن الضرب تلاقت نظراتهم بصمت ، كانت لحظة رائعة ، وكأن نوح أعظم آل أولمار .

أعظم البشر جميعاً .

وكم حكى شيخ القبيلة غوان عن رجال شجعان لكنه لم يسبق أن قتل دباً رمادياً بضربات هراوته . ولسوف ترسخ هذه الأسطورة في عقول الفتيان وتتناقلها الأجيال وتزيد في مطامحهم إلا إذا هلك نوح ونام وغاو بحثاً عن النار .

4 - الأسد العملاق والنمرة

مر قمر . منذ زمن طويل ، مضى نوح نحو الجنوب واجتاز السهوب ، وقطع الغابة فكانت لا نهاية لها تتوسطها الجزر الصغيرة من الأعشاب والحجارة والمستنقعات . وكم رأى فيها من أنواع الحيوانات وألوان الزهور والنباتات ، فيها النمر والسبع الوردي والفهد وإنسان الأشجار الذي يعيش وحيداً مع بعض إناثه وتتجاوز قوته قوة البشر العاديين ، وفيها الضب والخنـــزير والذئب والغزال والوعل والكركدن ، كما أنهم وقعوا على الأسد العملاق الذي أصبح نادراً ، وقد بدأ استئصاله منذ مئات القرون .

وجدوا فيها أيضاً الماموث الذي يجتاح الغابة فيكسر الأغصان ويقتلع الأشجار ، وكان مروره أعظم دماراً من الفيضان أو العاصفة .

في ذلك الإقليم اكتشفوا الطعام وفيراً . كانوا يمشون بحذر على شكل مثلث حتى يراقبوا أكبر مساحة من الأرض .

كانت أيامهم عامرة بالخوف والمفاجآت . وكانوا يختارون أماكن راحتهم ولا يسيرون إلا نهاراً . ويختبئون داخل المغارات أو الكهوف أو يجعلون الصخور بعضها فوق بعض وكأنها مسكن آمن ولا يغفلون عن تعفية آثارهم لئلا يتبعهم أحد .

كان غياب النار يؤذيهم وخاصة في الليالي التي لا قمر فيها .

فإنهم يشعرون وكأنهم دخلوا قلب الظلمات فابتلعت أجسادهم ، وقد يلمحون شراراً يشتعل فيجرون إليه وهم يظنونه ناراً فإذا هو لمعان نجم على الماء أو التماع عين حيوان في الظلام . وكم أحسوا بضعفهم في هذا الاتساع الموحش .

ولعل ألمهم يكون أقل بين أهلهم في العشيرة لأن صدورهم تضيق بهذه الوحشة القاتلة .

انفتحت الغابة أمامهم ، ولكن الأشجار ما تزال تتراءى لهم في غروب الشمس في سهل واسع يمتد نحو الشرق .

وتأملوا هذه المنطقة حذرين لأن كثيراً من الحيوانات تجتازها قبل هبوط الظلام ، فسارعوا إلى شرب الماء ثم تفحصوا المكان ، وكادوا ييأسون من البقاء فيه ، ويعودون إلى الغابة ، لولا أن نام رأى مجموعة من الصخور المتراكم بعضها فوق بعض بحيث يمكنها أن تكون لهم ملجأً ، فسدوا مداخلها بصخرة دحرجوها ، ووجدوا أنفسهم في مأمن من الضباع والأسود والنمور والدببة ، وأما ما سواها من الحيوانات الصغيرة فلا يخشونها بل تخافهم وتهرب منهم ، ومنّوا أنفسهم بقضاء ليلة هادئة . وبدؤوا يضحكون مسرورين لأول مرة منذ رحيلهم .

طالت الظلال أكثر لغروب الشمس ، ومضت الشمس قرصاً وردياً وراء الأشجار واقترب الوقت الذي تنهض فيه الوحوش اللاحمة لصيد فرائسها فرادى أو جماعات .

في تلك اللحظة اندفع ثور بري من الغابة ، من أين جاء ؟ ولماذا ينفرد وحده ؟ فهل تأخر عن قطيعه أو سبقه فخاف من العدو فجرى في كل اتجاه ؟ ولم يتردد الثلاثة فهذه

فريسة سهلة لا بد من اصطيادها لأن قبيلتهم لا تهاجم القطعان ، وإنما تصطاد الحيوان المنفرد أو الضعيف أو المريض .

والثور البري هو جد الثور الذي نراه الآن ، ولكنه أضخم منه وأشد ذكاء ومكراً ، وكانت قطعانه تملأ الأرض كلها .

نهض نوح مزمجراً فلم يعد شيء يخيفه بعد الانتصار على ذلك الدب المتوحش . وأحس بتلك الغريزة التي ظلت ضرورية لبقاء النوع البشري واستمرار وجوده ، فكانت شجاعته تتضاعف كلما اقترب الثور بقرنيه اللامعين . وتنازعته غريزة أخرى هي ألا يبذر الغذاء المتوفر في الطبيعة ، فقد كان لديه لحم طازج ولا ضرورة لقتل هذا الثور ليجرب فيه قوته أو مضاء سلاحه . فترك الثور يمضي في حال سبيله .

فجأة رفع الرجال الثلاثة رؤوسهم وأحسوا بالخطر . وبإشارة من الزعيم اختبأ نام وغاو تحت الصخور التي لجؤوا إليها ، ثم تبعهم نوح حينما برز من الغابة (ميغاسيروس)

هارباً وريش رأسه يتطاير في الهواء . والزبد يتدفق من شفتيه ومنخريه وقوائمه تهز الأرض هزاً ، وبعد ثلاثين متراً ظهر عدوه الذي يطارده ، إنه نمر قوي العضلات ، مرن الحركة ، يقطع كل قفزة عشرين ذراعاً ، وكأنه يعوم في الفضاء لتناسق حركاته ، وتدفق عضلاته .

كان يظهر العياء على الميغاسيروس ، أما النمر فقد بدأ سباقه الآن . قال نام بصوت مرتعد :

– سيقبض النمر على الوعل الكبير . فأجابه نوح وهو يتابع المعركة بانتباه :

– الوعل الكبير لا يتعب أبداً .

ولم يكادا يقتربان من النهر حتى نقصت المسافة بينهما إلى نصفها ، ولكن الميغاسيروس زادت سرعته فأصبح الحيوانان على نفس المسافة السابقة ، ثم قصرت قفزات النمر حين اقترب من النهر وكأنه بدل رأيه ولم يعد مهتماً بمتابعة السباق .

والحقيقة أن النمر سباح ماهر وهو يريد أن يسترد في الماء ما خسره في اليابسة . حينما رمى الميغاسيروس نفسه في النهر ، ظهر الفرق واضحاً بين تخبطه فيه وبين سيلان النمر مع التيار . ولم يكن النهر عريضاً فسرعان ما وصل الوعل الكبير إلى الحصباء ووقف عليها ثم قفز إلى البر ونفض ريشه ثم مضى .

وأسرع النمر في سباحته ولكن قائمتيه لم تلمسا الحصباء بعد ، فكانت هذه فرصة للوعل الكبير كي يتقدم عليه بعشرين ذراعاً ، وحين وصل النمر إلى البر قفز قفزة لم يحسن تقديرها ، فلم يفز بطائل . هنالك تبين له أن اللعبة خاسرة فخرج من السباق ، وشجعه على ذلك أنه لمح الثور البري على مرمى البصر .

كان الثور البري قد تراجع نحو الغابة ، ولكنه رفع رأسه إلى أعلى يتنشق الهواء ، فشم رائحة النمر فجرى إلى السهل ليختبئ داخل الصخور التي نصبها آل أولمار .

ولكنه شم رائحة عدو آخر متربص به داخلها وهرول ليعود إلى الغابة ، ولكن قد فات الأوان ، إنه النمر قادماً إليه يجري بأقصى سرعته . وهو يدرك أنه لا يستطيع الهرب منه راكضاً ففضل مواجهته .

وقف ثابت القوائم خافضاً رأسه إلى الأرض يحفر الأرض بظلفه مستقبلاً عدوه بقرنين لامعتين وعيناه تقدحان شرراً ، ياله من محارب عنيد عرفته الغابة والسهوب ، تغلّب غضبه على خوفه وتحولت غريزة البقاء عنده إلى غريزة الشجاعة والكفاح . أما النمر فيعرف مزايا خصمه القتالية . فلم يهاجمه مباشرة بل صار يداوره ويتربص به ، ويبحث عن فرصة يستغلها ليغرس مخالبه في جسده أو يقصم فقراته ، ولكنه الثور الحذر يتابع بعينيه حركة عدوه ويدور معه بقرنيه اللامعين .

فجأة توقف النمر عن الهجوم ، وتجمدت قوائمه في مكانها وتوسعت حدقتا عينيه الصفراوين ، فقد رأى وحشاً هائلاً قادماً نحوه . إنه يشبه النمر وليس بنمر ، وهو مزيج من

النمر والأسد ، يزأر زئير الأسد ويدفع إلى الوراء عُفْرته[1] ويهز الأرض بمشيته . ولكنه لم يبادر إلى الهجوم فليس المكان مجال صيده ، وبغريزة الغريب تردد ليدرس موقعه ، أما النمر فهو في إقليمه يصيد فيه منذ عشرة فصول ، ويتحكم في المكان ، ويختار فرائسه ، وتعيش بقية الحيوانات كالفهد والضبع تحت رعايته فلا تواجهه ولا تنازعه وتتجنب الوقوف في سبيله ، أما هذا الحيوان الذي يجهله فما شأنه ؟ كان حيواناً نادر الوجود ، حيواناً من العصور البائدة . فقد انقرض نسله منذ آلاف السنين ، وأدرك النمر بغريزته أن هذا الحيوان أقوى منه ، وأسرع ولكن انتصاراته السابقة زودته بالشجاعة لمواجهته فتغلب على خوفه ، وكلما اقترب عدوه منه تباعد عنه ، ولكنه لم يهرب بل تجنب الوقوف في وجهه ومجابهته . نفخ الحيوان العملاق صدره الواسع وزمجر ثم تحفز للوثوب وقفز عشرين ذراعاً ، فابتعد النمر عنه . وقبل أن يقوم بقفزة

1- العفرة : الشعر المحيط بالوجه لدى الأسد .

ثانية تخاذل النمر عن مواجهته ، ولكنها خدعة أراد بها أن يجر عدوه إلى مكان قريب من عرينه ، فالتمعت عيناه الصفراوان وتحول لونهما إلى الأخضر وأقبل على المعركة .

إنه لم يكن وحده .

لقد اندفعت النمرة من بين الأعشاب لامعة الإهاب ، رائعة المنظر فاتكة الأنياب ، هبت لنجدة زوجها .

أما الأسد الهائل فقد تردد أيضاً وارتاب في قوته وتساءل :

– هل يترك مجال الصيد لصاحبه ؟ ولكن زمجرة النمرة دفعته لاتخاذ وضعية الهجوم . وتذكر كم قتل من حيوانات وفرق من أعداء ، فكبر عليه أن يتراجع أمام هذا الهرير وعزم على معاقبة هذين القطين . وكان يفصل بينه وبين النمر قفزة واحدة فقام بها ، ولكنه لم يمسك بالنمر الذي انحرف لها ثم عاد ليواجه الأسد الهائل . ففتح شدقه واندفع ليغرس أنيابه في إهابه فلم يشعر إلا وهو طريح الأرض ، طرحته صفعة من كف الأسد ، ولم يكد يستعيد صوابه حتى مزق الأسد بطنه

وترددت بين الأدغال صرخة . وبدأ الأسد يكسر أضلاعه بأنيابه حينما اندفعت النمرة وشمت رائحة الدم فتوقفت وأطلقت صوت الاستغاثة .

كانت النمرة تتردد بين غريزتين غريزة الانتقام للنمر وغريزة البقاء . فأما النمر فقد أصبح أشلاء تحت براثن الأسد . وأما البقاء فهو الذي يفرضه قانون الأقوى ، والأسد هو الأقوى في هذا الموقف وما عليها سوى الانصياع له . فدارت حول نفسها وعادت إلى الأدغال .

لم يلاحقها الأسد العملاق ، وتمطى مستعرضاً عضلاته وهو يستنشق نسيم المساء ، وعبير المغامرة .

حان وقت رقاد الشمس الحمراء في الأفق ، وبدأت الحيوانات النهارية تبحث عن مأوى لها . فكنت تسمع زمجرة الذئاب ، ونباح الكلاب ، وضحك الضباع ، وفحيح الأفاعي ، ونقيق الضفادع في المياه . ثم هوت الشمس وراء الذرى ، وارتفع قمر ضخم من ناحية الشرق .

كان الثور الوحشي قد اختفى أثناء الصراع بين الأسد العملاق وبين النمر ، وأما الأسد العملاق فلم يطب له مذاق لحم النمر فأعرض عنه ، وجعل يبحث عن فريسة أخرى بين الأعشاب .

كان قد خرج من إقليمه بعد كارثة طبيعية ، وبدأ تجواله في الآفاق المجهولة ، ورفع أنفه إلى أعلى فلم يشم رائحة فريسة قريبة . ونظر إلى الأشجار فرأى بعض الفرائس اللذيذة ، ولكن حجمه الهائل يعيقه عن تسلق الأشجار .

عاد إلى النمر فنهش شيئاً من ظهره ، وكأنها وجبة أجبر على تناولها ، وتابع تجواله .

لمح الصخور المتراكمة فصوب بصره نحوها . ولم تكن الريح تهب من ناحيته ، وليس لديه حاسة شم قوية كالذئاب ، فلم ينتبه إلى وجود الرجال تحت الصخور ، ولكنه حين اقترب أكثر عرف أن فريسته هنا ، فتسارع تنفسه ، حرك الحقد نوح ، حقد الذكاء الجديد على الغريزة القديمة

والقوة الهائلة ، وتضاعف هذا الحقد حينما بدأ الحيوان يجرف الأرض بمخالبه .

لم يكن الأسد العملاق من الحيوانات القادرة على الحفر ، لكنه يستطيع توسيع المدخل بمخالبه ، فلم يلبث نوح أن رفع حربته وغرزها في رأسه ، فأطلق زمجرة ارتجت لها الغابة . ورأى أشباح الرجال الثلاثة وراء الصخور . وأدرك أن الفتحة لا تتسع له ، ولكنه لم يتخل عن فريسته ، وأطمعه فيها قربه منها ، ولا ندري ما حدث له ، فأدار ظهره وتوجه نحو الغابة .

فرح الرجال بزوال خطر الأسد العملاق ، وضحك أحدهم فأصيب الآخران بعدوى الضحك ، وتلك خاصية البشر ، ولا نجدها لدى الحيوان .

كانوا يتوقعون أن يعود الأسد العملاق إلى الهجوم . فانتظروا من الغروب حتى حلول الظلام ، ثم نام الاثنان وبدأ نوح دوره بالحراسة .

كانت المعركة التي دارت تحت ناظريه بين النمر والأسد العملاق ، قد أثارت في ذهنه كثيراً من الأفكار ، وأدرك سعة الكون وتنوع مخلوقاته وأحداثه ، فهو يعرف مسار الشمس والقمر ، ودورات الليل يتبعها النهار ، وفصل البرد يتلوه فصل الحر ، ويعرف مسار الأنهار ومواقع الينابيع ، وأن حياة الإنسان ميلاد فشيخوخة فموت ، ويعرف أشكال الحيوانات واختلاف طبائعها ، وأنواع الأشجار والنباتات ، وقد تعلم فن صناعة الحراب واستخدامها . ورأى الغيوم تلاحقها الريح وتدفعها في رحابة السماء . وعرف هطول الأمطار ، ووحشية الصواعق . وأخيراً ... إنه يعرف النار أعظم الأشياء الحية وألطفها . فهي قادرة على إحراق السهوب والغابات بما فيها من ماموث وأسود ونمور ودببة وثيران وحشية .

إن حياة النار قد اجتذبت إليها نوح على الدوام ، فهي شبيهة بالحيوان محتاجة إلى فريسة ، وفرائسها الأغصان والعشب اليابس والأجمات . وهي تتوالد فكل نار تولد نار بعدها ، وهي تموت .

وهي حيوان وليست حيواناً بآن واحد . فليس لها قوائم ولا جسد يتلوى على الأرض ، ولكنها تسبق الغزلان . وليس لها أجنحة وتطير بين الغيوم . وليس لها شدق ، ولكنها تصفر وتزمجر وتزأر .

وليس لها يد أو مخالب ، ولكنها تسيطر على امتداد كل شيء .

فنوح يحبها ويكرهها ويهابها . وقد عضته يوماً فلا صاحب لها ولا صديق . وقد تلتهم من يغذيها ، ويحسن إليها . فهي أغدر من الضبع وأعنف من الفهدة . ولكن حضورها رائع يبدد الظلام ، ويطرد برد الليل ، ويدعم ضعف الإنسان .

كان نوح تتراءى له صورة جملا وهو في مكانه ، يراها قرب نار المخيم ، بين أفراد العشيرة . وتأمل القمر ساطعاً في السماء فتساءل من أين يصعد هذا القمر ولماذا لا ينطفئ أبداً ؟ وهو يزيد وينقص . فتراه أحياناً ضئيلاً ضعيفاً ، وتراه

أحياناً أخرى قوياً مكتمل الضياء ، لا ريب أن هناك بعض البشر المخيفين يهتمون به ويرعونه ويغذونه بحسب الفصول .

هذا المساء إنه في قمة صحته . فهو مرتفع كالأشجار ، وينقص حجمه ، ولكن يزيد ضياؤه ، وهو يعلو في السماء ، لا ريب أن البشر المخيفين قد أطعموه خشباً وفيراً .

حينما كان نوح غارقاً في تأملاته ، وأحلامه ، كانت الحيوانات الليلية هائمة تبحث عن رزقها .

وسمع عواءً فأدرك أن الذئاب قد ضيقت الخناق على فريسة لها . ولم يمر وقت طويل قبل أن يندفع من الغابة حيوان شبيه بالحصان وله قرون تلاحقه ثلاثة ذئاب ليست بسرعته ، ولكنها تتوقع أن ينقطع نفسه أو يسقط على الأرض لتنال منه .

وتجاوب العواء في الغابة ، وإذا عصابة أخرى من الذئاب تسد عليه الطريق ، وتحيط به ، فلم يجد بداً من الوقوف وقد ارتعدت قوائمه وسدت عليه المنافذ إلا طريقاً واحداً يحرسه الذئب الرمادي .

فاختار المضي فيه ، وقف الذئب الرمادي ثابتاً ينتظر قدومه . وما إن اقترب منه حتى بزغ ذئبان آخران من وراء الأشجار . فأدرك الحيوان أن لا نجاة له منها . فدار حول نفسه والموت يتربص به ، واستعان بمكره وقوة قوائمه ، وعرف أن الذئاب لا تتغذى بالعشب لكنها تتشهى لحمه الطري .

وضاقت حلقة الذئاب من حوله فكان يركل هذا ، وينطح ذاك ، ولكنها لم تعزم على مواجهته بعد ، بل تداوره وتشغله ، وهي على بعد أذرع منه ، حينئذٍ عزم الحيوان أن يكسر الطوق من حوله .

فاندفع بكل قوته ، فتعلق به ذئب ، فنفضه عنه ، وركل ذئباً ثانياً أراد أن يقبض على حافره . وانكسرت حلقة الذئاب ، ولكن الثالث تعلق بخاصرته ، وغرز فيها أنيابه ، ونهش نهشة واسعة من لحمه فركله ركلة جعلته يتدحرج بين الأعشاب ، فهجم عليه أثناء ذلك ذئب آخر وأمسك بحنجرته . كانت الدماء تتسايل على الأرض من كل أنحاء

جسده ، والذئاب قابضة عليه بأنيابها . فسقط أرضاً ، وتدافعت إليه الذئاب تأكل لحمه ، وتشرب دمه وهو ما يزال ينتفض بالحياة .

كان القمر في قمة السماء ، وحان دور غاو في الحراسة ، وصوت النهر يصل إليهما هادئاً . ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً ، فقد قطعه صراخ استغاثة من حنجرة حيوان جريح .

أرهف غاو سمعه وأحدَّ بصره من وراء الصخور ، فرأى الأسد العملاق مندفعاً من الغابة ، وبين فكيه غزالة ، وقريباً منه كانت النمرة تزحف كأنها أفعى ضخمة ، وكلاهما يتقدمان نحو ملجأ الرجال ، خاف غاو فأيقظ صاحبيه فجعل الثلاثة يرقبون هذين الوحشين ، أما الأسد العملاق فكان يمزق فريسته بحركات بطيئة ، وأما النمرة فكانت تتردد وهي ترمي بنظرات القلق لذلك الحيوان الذي قتل زوجها ، وأحس نوح بأن عليه أن يخوض معركة جديدة .

5 - تحت الصخور الضخمة

حينما تجول النهار في أنحاء الأرض كان الأسد العملاق والنمرة لا يزالان هناك ، ينعسان قرب جثة الغزال ، تحت شمس شاحبة . ونظر آل أولمار نحو هذين الوحشين الراقدين ، فقال نوح :

– لن يظل الأسد العملاق والنمرة معاً ، فالجوع يفرق بينهما .

وحين يمضي الأسد إلى الغابة سنبدأ المعركة ، ولكن يجب على نام وغاو أن يطيعا أوامري .

توفزت أعصاب نام حين سمع كلام زعيمه فقال :

– سيطيعك نام حتى الموت .

أما الآخر فرفع يديه وقال :

– غاو لا يخاف شيئاً وهو مع نوح .

وانتظر الثلاثة بالصبر نفسه الذي ينتظر به الوحشان . وكانوا يتناولون لقماً قليلة من زادهم ، ولكن العطش بدأ ينال منهم ، ولكنه لا يغدو قاتلاً إلا بعد أيام .

وقت الغروب وقف الأسد العملاق ، ورمى ببصره إلى كتل الصخور ، وتأكد من وجود الأعداء وراءها .

ولم يكن يتذكر ما حدث بالأمس تماماً ، ولكن إحساسه بالثأر قد عاوده ، وهو يشم رائحة آل أولمار . فزمجر حانقاً ونهض يتجول حول الصخور . وعرف أن لا منفذ منها فتوقف قرب جثة الغزال التي نهشت منه النسور قطعاً صغيرة .

واستغلت النمرة هذه الفرصة فأكلت قطعة من اللحم ، فالتفت إليها الأسد العملاق ، ولم يتعرض لها ، وكأنما شكرته النمرة بهريرها ثم انسلت بين الأعشاب .

كان ضوء القمر ينير الأسد العملاق القابع بين الأعشاب العالية ، والنمرة تتنقل بين السهوب والغابة باحثة عن فريسة ما ، وقد أقلقت الزعيم بحركتها هذه .

وقد أحس أن المسافة التي تبعده عن العشيرة طويلة ، وهو في هذه المنطقة المعزولة تحيط به الوحوش ، وطافت حوله صورة تلك المرأة التي خاطر بنفسه من أجلها .

أثناء نومه كانت أية حركة مهما صغرت توقظه ، فنظر إلى النجوم ، كانت النمرة قد عادت وليس معها فريسة ، ونهض الأسد العملاق فشمها ثم ذهب إلى الصيد .

راقب المحاربون النمرة ، لم تكن نائمة ولكنها مستلقية تتربص بهم ، وكان نوح قد أحدث فتحة في الجدار تتيح لهم الهرب منها ، فطلب من رفيقيه أن يهربا ومعهما سلاحهما ، فلم تسمع النمرة أصواتهما إذ ارتفع في تلك اللحظة عواء الذئاب فغطى عليها ، وخرج الثلاثة ولم يبتعدوا كثيراً ، فقد تنبهت النمرة إليهم ، فقفزت وهي تزأر ثم مشت إليهم دون عجلة . وكأنها واثقة من الوصول إليهم . فرفعوا رماحهم أمام وجوههم . رمى نام رمحه ليصيب به قائمتها ، فمر يصفر فأصاب كتفها .

إما لأن المسافة بعيدة ، أو لأن سنان رمحه انزلق عن جلدها ، فلم تشعر النمرة بالألم بل أسرعت في خطوها . وتقدم غاو ورمى برمحه فلم يصبها إذ انحرفت عنه ، وجاء دور نوح فرمى رمحه وهي على بعد عشرين ذراعاً منه فأصاب عنقها بجرح غائر ينـــزف الدم منه ، ولم تتوقف بل هجمت عليهم ، وكأنها صخرة ، فضربها نوح بهراوته فكسر يدها . ووقفت على قائمتيها الخلفيتين لتمسك نوح ، وأحس بلهاثها يمر قرب وجهه ، فرفع هراوته ومال عليها بكل ثقله ، فزأرت وقد أحست بالدوار . انتهز نام هذه الفرصة ليضرب قائمتها الثانية ، ففقدت النمرة توازنها ورمت مخالبها في الهواء فلم تصب أحداً ، على حين توالت ضربات الهراوة فوق أنحاء جسمها .

وهوت على الأرض ، ولم يشأ أن يجهز عليها لأن جراح صاحبيه قد شغلته عنها ، ورأى غاو واقفاً والدم يسيل من صدره ، وثلاثة خطوط تركت أثرها عليه ، وأما نام فيتلوى

على الأرض وجروح صدره وظهره لا تبدو غائرة ولكنه لا يقدر على النهوض . سأله الزعيم :

– هل يستطيع غاو الوصول إلى النهر ؟

فتمتم الفتى :

– غاو سيذهب إلى النهر .

ألصق نوح أذنه بالأرض ثم تنشق الهواء طويلاً . لا شيء يدل على أن الأسد العملاق قريب . وبعد حُمَّى القتال يحس المحارب بالعطش .

فحمل الزعيم نام بين ذراعيه ونقله حتى الماء ، ثم ساعد غاو على الوصول إليه . وهناك شربوا حتى ارتووا . بعدئذٍ أسند نام إلى صدره ، وأسند غاو إلى ذراعه ، وعادوا إلى مخبئهم بين الصخور .

انطلق نوح مرة ثانية فأحضر أوراق الصفصاف والنعناع فهرسها ، ثم دهن بها صدر غاو ، فانقطع الدم ، ولكن الجروح غير قاتلة ، واستفاق نام من غفوته وإن كانت أطرافه ما تزال ضعيفة .

لم ينس نوح الكلام المفيد فقال :

– لقد قاتل نام وغاو أحسن قتال ، وسوف يذكر آل أولمار شجاعتهما .

والتمعت عيونهما من الفرحة وهما يريان زعيمهما منتصراً .

قال غاو :

– لقد صرع نوح النمرة كما صرع الدب الرمادي .

وقال نام :

– لا يوجد محارب بقوة نوح .

فقال لهما بصوت أعاد الأمل إليهما :

– سنأتي بالنار .

ثم أضاف : إن الأسد العملاق ما يزال هنا ، سأذهب للبحث عن فريسة .

ارتفعت ضجة غزالات هاربة من كلاب لم تظهر بعد ، وإن سمع نباحها فرمت نفسها في الماء ، بعد أن شمت رائحة النمرة والبشر .

ولكن انطلق سهم نوح فأصاب خاصرة واحدة منها فسقطت ، فأجهز عليها بضربة من هراوته ، وحملها على كتفه ، ورجع إلى الملجأ مهرولاً ، لأنه أحس بخطر داهم ، وما إن دخل بين الصخور حتى خرج الأسد العملاق من الغابة .

6 – الهرب ليلاً

مرت ستة أيام على المعركة بين النمرة والرجال ، والتأمت جروح غاو ، لكنه لم يستعد عافيته لكثرة ما سال من دمه .

وأما نام فلم يعد يحس بالألم ، ولكن إحدى قدميه ظلت ثقيلة ، وكان نوح يتحرق صبراً وقلقاً .

كان الأسد يطول غيابه كل ليلة لأن الحيوانات عرفت مكمنه ، لذلك اضطر إلى الإيغال في الغابة بحثاً عن فريسته . وهو عظيم الشهية ، لا يطعم نفسه فقط بل يتكفل بهذه النمرة الجريحة التي لم يشأ نوح أن يجهز عليها لكي تبقى عبئاً ثقيلاً على الأسد العملاق . ولطالما رقد هذان الوحشان دون أن يذوقا لحماً .

فكانت حياتهما أشد بؤساً من حياة الذئاب . وشفيت النمرة تماماً لكنها بقيت ضعيفة تتحامل على نفسها للوصول

إلى الماء . ولم يعد نوح يهتم بها لأنها تهابه ولا تقدر على إيذائه .

وقد نشأ بين الرجل والنمرة المقعدة حوار غريب ، فهي تسمع نداء صوته المختلف عن صوت الحيوانات الأخرى ، فترفع رأسها وتنفخ صدرها وتكشر عن أنيابها ، فيلوح لها نوح بهراوته وهو يصيح :

– ما فائدة براثنك الآن أيتها النمرة ؟

وكان قادراً أن يكسر أنيابها بهراوته ، أو يشق بطنها برمحه ، فلم تكن تختلف عن الغزالة أو الوعل في شيء .

في غيبة الأسد العملاق يمضي نوح إلى النهر وحيداً ، وقد يأخذ معه غاو في بعض الأحيان ، ويحملان الماء إلى نام في جوزة هند مكسورة . في اليوم الخامس استطاعت النمرة أن تجر جسدها لتصل إلى الماء واستطاعت أن تشرب منه ، بدأ نوح وغاو يضحكان منها وقال نوح :

– إن الضبع أقوى منها الآن ... وسوف تأكلها الذئاب .

ثم ملأ قشرة الجوز بالماء ووضعها أمامها فشمتها ثم شربت منها . واستمتع الرجال بهذه اللعبة فكانوا يسقونها دائماً ، وقال أحدهم :

– لم تعد النمرة قادرة على الشرب من النهر وقد ذهبت عنها قوتها .

في اليوم الثامن وسعا مدخل الحفرة استعداداً للهرب في الليلة القادمة ، كان المساء شديد الظلام بحيث لا ترى العين أبعد من عشرة أذرع ، والرطوبة عالية تمنع نوح من شم الحيوانات ومعرفة مسافة بعدها عنه ، كما أن أوراق الشجر المتساقطة لا تتيح له سماع الأصوات بدقة ، فحملوا أسلحتهم وانتظروا .

بعد غياب الشمس دار الأسد العملاق حول المكان فلم يجد فريسة فتوجه نحو الغابة ، انتظر نوح قليلاً ثم أعطى الإشارة بالانطلاق ، فخرجوا جميعهم متوجهين إلى النهر . كان غاو يسير عن يساره ونام عن يمينه ، لتكون مسيرتهم أكثر أمناً . وجعلوا أغصان الأشجار وراءهم ليمحوا آثار

أقدامهم . ثم داروا حول أنفسهم عدة دورات قبل أن يتوجهوا إلى النهر ، وقد عزموا على قطعه إلى الضفة الأخرى سباحة .

حين وصلوا إلى الضفة الثانية قاموا بالعملية ذاتها ، وحملوا معهم بعض الأعشاب والأغصان يرمونها فوق آثارهم . وبعد أن قطعوا مائتي ذراع أو ثلاثمائة ساروا في خط مستقيم .

ظلوا على هذه الحال حيناً من الزمن ، ثم توقفوا وقد أحسوا بشيء من بعيد ، فأرهفوا أسماعهم ، فإذا زمجرة مكتومة تبعها زئير مرتفع فقال نام :

– إنه الأسد العملاق .

وقال نوح :

– لنمش بسرعة !

ومشوا مئات الأمتار دون أن يعكر صفو الظلام شيء ، ثم سمعوا صوت الزئير أقرب من قبل :

– الأسد العملاق بجانب النهر .

فأسرعوا في مشيهم أكثر ، وهم يعلمون أن الوحش سائر على خطاهم ، وأحسوا بالخوف في هذه الظلمات ، وكانت قلوبهم تخفق كأنها نقرات طائر على غصن شجرة . ولكن هذه الظلمات هي التي تحميهم من الحيوانات النهارية القابعة في جحورها أو الراقدة في أعشاشها .

إن الأسد العملاق لا يستطيع أن يتبعهم إلا إذا شم آثار خطاهم ، وإذا قطعوا النهر سباحة ضللوه فلم يتمكن من اللحاق بهم ، وقطع الصمت فجأة زئير الأسد ، فقال غاو ونام :

– لقد عبر الأسد النهر .

فأمرهم نوح :

– امشوا مسرعين .

ثم توقف وجعل أذنه على الأرض ليستمع خطوات الأسد ، فنهض وقال :

– ما زال الأسد على الضفة الأخرى .

لقد توقف الحيوان عن ملاحقتهم بعد أن عجز عن اقتفاء آثارهم ، وتوجه نحو الشمال .

ساروا زمناً طويلاً وقد انقشع الضباب ، لكن الظلام ما يزال شديداً وغطت النجوم سحابة كثيفة .

توقف الرجال ليتفحصوا الأصوات ، ويتنشقوا الروائح ، وعزم نوح على المبيت فوق شجرة صفصاف كبيرة ، ولم تكن حصناً جيداً ضد الوحوش ، ولكن كيف تجد في الظلام ما تبحث عنه ؟ وعلى الرغم من البرد والرطوبة ، فإن جلودهم تقاوم مثلما يقاوم فرو الدببة . ورقد غاو ونام طريحين من التعب ، وظل نوح يحرس وقد استراح طويلاً في المخبأ بين الصخور .

الجزء الثاني

1 — الرماد

ظلوا جالسين في ظلام الليل الذي أخّر هرَبَهم . وفجأة عاد النور إلى السماء وبدأت طلائع النهار تنتشر على الكون . فرأى نوح أن البحيرة حاجز بينهم وبين طريق الجنوب ، ولم تر عيناه نهاية لها . وتساءل عما إذا كان ينبغي لهم أن يدوروا حولها نحو الشرق ، ويتبعوا سلسلة الهضاب أم يتجهوا نحو الغرب حيث الأرض منبسطة ، مزروعة بالأشجار ؟

انزعج نوح لهذا التردد فابتعد عن ظل الشجرة ، وتجول على ضفة الماء . فرأى آثار أقدام كثيرة :

– أظلاف قطعان ، وقوائم حيوانات متوحشة . وفجأة انتابته قشعريرة ، وتوسعت حدقتاه ، وفتح أنفه وخفق قلبه جزعاً . شيء ما ذكّره ديار قبيلته ورائحة الشواء وطيف

جملا . شيء يتمشى بين الأشجار ، فقد رأى وسط منبسط من الأرض آثار نار مشتعلة ، وقد خلفت أغصاناً سوداء ، ورماداً متجمعاً تحتها ، وتخيل نوح هدفه وقد تحقق ، وشم رائحة اللحم المشوي ، وحرارة النار الملتهبة ولكنه تخيل بآن واحد صورة الأعداء . وجثا على الأرض يتفحص جيداً آثار الأقدام وقد سيطر عليه الجزع والحذر ، وسيعرف بعد قليل أن هناك عدد ثلاث مرات من أصابع يديه من المحاربين ، وليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا طفل .

إنها إحدى بعثات الصيد الاستكشافية التي ترسلها القبائل إلى المناطق البعيدة ، وما خلفته من عظام وبقايا ، أكده ظنه هذا .

والمهم بالنسبة إلى نوح أن يعرف من أين جاء هؤلاء الصيادون وكيف كان طريقهم ؟ وكان يخشى أن يكونوا من مفترسي البشر الذين يسكنون منذ طفولة غوان شيخ العشيرة الأقاليم المتاخمة للماء وشاطئي النهر . وهم جنس من البشر أضخم من عشيرة آل أولمار وكل العشائر التي يعرفها الزعماء

والشيوخ ، وعلى حين كانت هذه الأفكار تدور في رأسه لم يتوقف عن تتبع الآثار التي انطبعت بين النباتات وكان ذلك أمراً سهلاً . لأن الصيادين الواثقين بأنفسهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محو آثارهم ، وقد ساروا على الجانب الشرقي من البحيرة حتى يصلوا إلى النهر الكبير .

وكان عليه لئلا يضل طريقه أن يتبع هذه الآثار وهو يعلم أن هذا الجنس من البشر تخشاه معظم المخلوقات .

2 – المرصد أمام النار

تتبع آل أولمار آثار مفترسي البشر ثلاثة أيام ، فساروا أولاً بجانب البحيرة حتى الهضاب ، ثم وصلوا منطقة تتناوب فيها السهوب والأشجار . وكانت مهمتهم سهلة لأن الجوالين يمشون مشياً بطيئاً ، وكانوا يوقدون النار الملتهبة يشوون عليها طرائدهم أو يتدفؤون بها في الليالي الباردة .

ولم يكن نوح لينسى أن يستخدم ذكاءه فلا يخلف وراءه أي أثر . وكان يؤثر المشي على الأرض الصلبة أو فوق الأعشاب المرنة التي تعود إلى حالتها الأولى بعد أن يدوسها ، وقد يختصر الطريق بأن يسير في الجداول أو يسبح على أطراف البحيرة ، وعلى الرغم من ذلك كله كان سيره سريعاً . في نهاية الليلة الثالثة كان قريباً من مفترسي البشر حتى إن مسيرة ليلة واحدة توصله إليهم .

قال نوح لصاحبيه :

– على نام وغاو أن يهيئا أسلحتهما وشجاعتهما ، سنرى النار هذا المساء .

وحين فكر الشابان بتلك النار الملتهبة وأولئك الأعداء الجبارين ، ملأا رئتيهما بالهواء واستعدا للمجهول . قال نوح :

– لنسترح قليلاً ، سندنو من مفترسي البشر أثناء نومهم ، وسنحاول خداع الحراس .

وفكر غاو ونام أنهما يتعرضان لخطر لم يسبق لأحد من العشيرة أن تعرض له . إذ أن قوة مفترسي البشر مشهورة بين القبائل ، وبحسب ما يرويه غوان فإنهم ينحدرون من سلالة الدب الرمادي .

وأذرعهم أطول من البشر الآخرين ، وأجسامهم مغطاة بالشعر مثل آغو وإخوته ، ولأنهم يتغذون بجثث أعدائهم فقد نشروا الذعر بين القبائل .

حينما كان نوح يحدث نام وغاو ، أطرقا برأسيهما ثم ذهبا إلى النوم حتى منتصف الليل .

واستيقظا قبل أن ينشر الهلال نوره في عمق السماء .

وساروا على الآثار في الظلام ، وحين ظهر الهلال عرفوا أهم ضلوا طريقهم فعادوا إليه ، وأخيراً ظهرت لهم النار في وهدة من الأرض بين الأشجار .

كان نام وغاو يرتعدان ، وظل نوح جامداً يخفق قلبه بقوة . ها قد مضت ليالي البرد والمطر والظلام وهاهو صارع الجوع والعطش والدب والنمر والأسد العملاق ، ثم إذا به يرى النار الملتهبة الدالة على البشر .

تجمعت حول اللهب حشرات ليلية من كل الأجناس ، ولسان النار يرتفع في الهواء تحت ضوء القمر ، وللنار ألسنة عدة تمتد إلى الأعلى كالأفاعي وتتباعد كالغيوم .

كان الرجال نائمين وقد غطوا أجسامهم بجلود الذئاب والدببة والثيران ، وجعلوا وبرها إلى الداخل . وانتشرت على الأرض حولهم الرماح والفؤوس والهراوات ويحرسهم رجلان ، الأول جالس على كومة من الحطب الجاف وقد غطى كتفيه بجلد ماعز وأمسك بيده رمحاً ، وأما الثاني فيتمشى

حول النار ويتوقف حيناً بعد آخر فيرهف أذنيه ، ومنخريه يتشمم الهواء الرطب الذي أدفأته النار ، وكانت قامته مثل قامة نوح وله رأس ضخم وأذنان مدببتان كأذني الذئب يحركهما في كل اتجاه .

حرك رأسه تجاه الهضبة لعله يشم رائحة غريبة لا تشبه رائحة الحيوان أو رائحة أفراد قبيلته ، أما الآخر الذي كانت حاسة شمه أقل إرهافاً فكان يغالب النعاس .

قال غاو بهدوء :

– نحن قريبون جداً من مفترسي البشر والريح تحمل إليهم رائحتنا .

قال نوح :

– لنرجع قليلاً .

فزحفوا حتى وصلوا إلى شجرة ممتدة على الأرض فاختبؤوا فيها . أما الحارس فقد حرك وجهه في كل اتجاه ثم عاد إلى المخيم .

ظلوا جالسين مدة من الزمن ثم تعالت أصوات أبناء آوى . فقال نوح والتمعت في رأسه فكرة :

– نحن في بلاد أبناء آوى فلنقتل واحداً منها .

فنظر إليه صاحباه نظرة دهشة فقال :

– ابن آوى لا يقل مكراً عن الذئب ولا يستطيع إنسان الاقتراب منه ولكنه جائع على الدوام . سأبقى هنا وتذهبان أنتما فترميان بقطعة لحم وتنتظران على مسافة قريبة .

سيأتي ابن آوى فيدور حول اللحم وحول نام وغاو ، فإذا بقيا جامدين كالحجر فسيذهب ثم يعود ليخطف قطعة فلا تتحركا .

وحين يمسك قطعة اللحم بأسنانه يجب أن تكون حرابكم أسرع منه وإلا هرب بها .

انطلق نام وغاو بحثاً عن ابن آوى ، ولم تكن مهمة صعبة فأصوات أبناء آوى تدل عليها ، ولا تفضل الحيوانات افتراسها . وسرعان ما صادفا أربعة منها ، ولم تهرب لرؤية

الرجال بل صوبت نحوهم عيوناً يقظة واستعدت للنجاة إذا داهمها الخطر .

وفعل الرجلان ما طلب منهما نوح فوضعا قطعة من لحم الغزال ثم ابتعدا وبقيا جامدين مثل جذع شجرة . ودار أبناء آوى حول قطعة اللحم بخطوات قصيرة وقد خفف من حذرها رائحة اللحم ، ثم هجمت دفعة واحدة لئلا تترك لأحدها فرصة الاستئثار بها . وكانت هجمة سريعة كما وصفها نوح ، ولكن الرمحين كانا أسرع فاخترق كل منهما خاصرة حيوان وهرب الآخران بالغنيمة .

حينما رجع نام وغاو ومعهما الجثتان قال نوح :

– الآن نستطيع خداع مفترسي البشر لأن رائحة أبناء آوى أقوى من رائحتنا .

كانت النار يقظانة تأكل الأغصان والجذوع ويرتفع لهيبها ودخانها فوق السهول . فرأوا النائمين بوضوح وحولهم أسلحتهم وطعامهم . وجاء مكان الحارسين رجلان آخران جلسا على الأرض ينظران إليها ولا يشكان في وجود الخطر .

قال نوح :

– جاء دوري في الصيد .

وهبط المنحدر وهو لابس جلد ابن آوى ، واختفى بين الشجيرات . لم يتحرك الحارسان ، ولم يكن أحدهما يشم رائحة ابن آوى التي لا تثير الفزع لديه ، وطاف نوح ببصره في المخيم وتأمل الرجال النائمين فإذا هم جميعاً ضخام الأجسام واسعو الصدور طوال الأذرع . ولكن سيقانهم قصار لا تساعدهم على الجري السريع .

وأدار الحارسان ظهريهما فزحف على الأرض ببطء وكأنه الأفعى ويتوقف كلما أبدى أحد الحارسين حركة ما .

ثم وجد نفسه تحت شجيرة فاختبأ وراءها ، ثم زحف حتى صار قريباً من النار وسط الجموع النائمة وكلهم على مرمى رمح منه ، فلو استيقظ أحدهم لأحاطوا به فكانت نهايته . ولكن الحظ حالفه إذ هبت الريح في عكس اتجاهه ، ولم تنقل إلى الرجال رائحته أو رائحة ابن آوى .

قفز نوح كالفهد وسط الحلقة وجذب إليها غصناً مشتعلاً ثم رجع إلى ناحية العشب ، فانطلق وراءه أحد الحراس ورماه الآخر بحربته ، ونهض الرجال العشرة بآن واحد .

وقبل أن يقطعوا عليه الطريق جرى ناحية الهضبة في خط مستقيم حيث ينتظره نام وغاو .

كانوا من قبيلة مفترسي البشر الأقزام ، فجروا وراءه يزمجرون بأصوات الخنازير ، وعلى الرغم من سيقانهم القصيرة فقد كانوا سريعي الجري ، ولكنهم ليسوا بسرعة نوح الذي كان يعدو أمامهم كأنه ميغاسيروس .

وصل إلى مكان صاحبيه وقد سبق الأقزام بخمسمائة ذراع ، وصرخ :

– اهربا .

وانطلق الشابان بين الأشجار مثل النمور الهائجة .

وفكر نوح أنه قد أحسن اختيارهما بدل أولئك المحاربين الأشداء الثقيلي الحركة ، وكان نوح يتوقف حيناً بعد حين

ليتفحص الجمرة التي انطفأ لهيبها ولكنها ما زالت متوقدة . وقد تنازعه أمران أن يهرب من مطارديه وأن يحرص على الجمرة لئلا تنطفئ وقد لاقى في سبيلها كل هذه الأهوال . وقد خمدت الجمرة ولم يبق منها سوى بصيص أحمر لم يستطع تجاوز القطعة الرطبة من الغصن ، ولكنه كاف لأن يبعث الأمل في قلب نوح ، فلو توقف عن الجري لأحيا هذا البصيص وغذّاه بأوراق الشجر اليابسة .

كان القمر في الثلث الأخير من مسيرته في السماء حين وصلوا إلى مستنقع من القصب ، فدخلوه واستراحوا فيه ، وقدر نوح بغريزته البشرية والحيوانية أن الوقت قصير أمامه ، فالجمرة قد خبا لونها ولم يبق منها إلا اليسير .

وبحثوا حولهم عن قطعة عشب أو حطب يابسة فلم يجدوا ، كان كل شيء حولهم غارقاً في الماء ، وكانت الجمرة تقاوم الموت فنفخ فيها نوح بفمه بعض الحياة .

رمى فوقها بعض وبر ابن آوى فاحترق ولكنه لم يزدها اشتعالاً ، وبعد قليل لفظت أنفاسها وخلفت وراءها بقعة

رمادية على طرف الغصن ، فأصابت روح نوح الكآبة وتجمد الدم في عروق المحاربين .

ماذا لو أن هذه الجمرة اشتعلت فأصبحت لهيباً تخيف الأسد العملاق والنمر والدب الرمادي وتصارع الظلمات وتبعث في اللحم رائحة لذيذة ، لو جاؤوا بها إلى القبيلة لاعترفت بقوتهم ، وهاهم الآن ما كادوا ينتزعونها حتى لفظت أنفاسها ، وبعد أن واجهوا مخاطر الأرض والماء والحيوان ، عليهم أن يواجهوا خطر البشر .

3 – على ضفاف النهر الكبير

هرب نوح أمام الأقزام ، وقد دامت المطاردة ثمانية أيام ، وكانت مطاردة صعبة عامرة بالمخاطر .

لأن الأقزام عازمون على الإمساك بهم خوفاً من أن يكونوا طليعة قبيلة لتسقّط الأخبار ، أو لأن طبيعتهم الشرسة تدفعهم إلى قتل من يقف في طريقهم ، وما زالوا يهربون أمامهم حتى رأوا في اليوم الثامن النهر الكبير ينبع من قمة هضبة مدببة .

كان النهر يجري بكل قوته عبر مناطق عديدة من صخور وأعشاب وأشجار ، ويبتلع الغدران ويرمي مياهه إلى الكهوف ويجرف بتياره ما يصادفه من أشجار .

فإذا وصل إلى السهوب انتشرت مياهه على شكل بحيرات ومستنقعات ، وخلف وراءه الجزر الصغيرة ثم انحدر شلالات سريعة يُسمع نحيبها من بعيد .

كانت تعيش في مياه النهر أنواع من الحيوانات السابحة من أسماك وضفادع وتماسيح ، وتحلق فوقها الطيور الجارحة كالنسور والصقور باحثة عن طعامها ، وتستطيع أن ترى بعض أفراس البحر تسبح كأنها جذوع أشجار وتطوف بعيداً عنها جرذان الماء والأفاعي ، وعلى شواطئه تنتشر قطعان الحمر الوحشية والثيران والميغاسيروس والخيول البرية ، ولكن أقواها قطعان الماموث .

وتطفو على سطح مياهه جذوع الأشجار المكسورة ، وتجرف الرمال والصلصال وجثث الحيوانات والأوراق والجذور .

كان نوح يرى الماء جميلاً ، لأنه مخلوق متعدد المزايا متحول الصفات ، وهو شبيه بالنار ، إذ يزداد وينمو وينبثق من المجهول ، ويندفع في الفضاء يفترس الحيوانات والبشر ويسقط من السماء فيملأ الأرض ، وهو لا يمل إذ ينحت الصخر ويجرف الحجارة والرمال ، ولا يعيش بدونه حيوان أو نبات ، وهو يتعب ويستريح ويغني ويضحك وينتحب ، والماء

يجري حيث لا تستطع أصغر الحشرات الدخول . فنسمع صوته في باطن الأرض وهو صغير في المنبع ، كبير في الجدول ، عظيم في النهر ، أعظم من الماموث ، وهو أوسع من الغابات ، والماء ينام في المستنقع ويستريح في البحيرة ، ويمشي سريعاً في الأنهار ، ويندفع في التيار ، ويقفز قفز النمر أو الثور في الشلال .

ابتعد آل أولمار عن ملاحقة الأقزام وأقاموا مخيمهم بعد أن زال عنهم الخطر ، كان الجو بارداً فتناولوا طعامهم من اللحم النيئ والجوز والفطر وهم يراقبون الأرض السوداء ، وتناوبوا النوم والحراسة ثم نهضوا فنـــزلوا إلى شاطئ النهر الكبير . وقطعت عليهم الطريق قطعان الماموث الضخمة التي انتشرت في مساحات واسعة عرضها ألف ذراع وطولها ثلاثة آلاف ، وكانت ترعى العشب الطري الأخضر وتنبش الجذور .

وتأملوا هدوءها والسكينة التي تحيط بها فبدت لهم سعيدة آمنة ، فقال نوح :

– الماموث سيد كل من يحيا على الأرض .

ولم يكن يخاف الماموث لأنه لا يهاجم الدواب إذا لم تبدأه بالهجوم ، ثم أضاف نوح قائلاً :

– إن (أيّوم) ابن الغراب قد عقد حلفاً مع الماموث .

وسأل غاو :

– ولماذا لا نعقد معها حلفاً نحن أيضاً ؟

فاعترض عليه نوح :

– لكن أيّوم يعرف لغة الماموث ونحن نجهلها .

ولكن هذا السؤال لم يفارق خياله ، فكان يدور حول هذه الحيوانات على مسافة قريبة .

ومروا أمام ماموث كبير فرفع رأسه ونظر إليهم ثم عاد إلى طعامه من النبات البري ، ولم ير نوح في حياته في مثل حجمه ، إذ كان ارتفاعه اثني عشر ذراعاً ، وحول وجهه عفرة مثل عفرات الأسود .

وكأنه اهتم برؤية هؤلاء الرجال الثلاثة ولكنه لم يخف منهم ، قال نوح :

– الماموث مخلوق هائل ، فهو يدهس الأسد أو النمر كما ندهس دودة صغيرة ، ويستطيع أن يطرح عشر ثيران بضربة واحدة ، نوح ونام وغاو أصدقاء الماموث ، وإذا استطعنا الحصول على النار شوينا الكستناء وأهديناها إلى الماموث .

وحينما كان يتحدث لاحظ أن أوراق النيلوفر تطفو على سطح البحيرة ، وهو يعرف أن الماموث يحبها فأشار إلى صاحبيه فجمعوا الكثير من هذا النبات ، ثم غسلوه وقدموه إلى الماموث فدنا منه وبدأ يأكله باستمتاع ، وحيناً بعد حين يرفع رأسه ويتأمل الرجال الثلاثة ويمد خرطومه ليشمهم ثم يهزه هزاً خفيفاً .

حينئذٍ اقترب نوح منه ووقف أمام قدميه الهائلتين وخرطومه الذي يشبه جذع شجرة ، ونابيه اللذين بحجم الثور ، فكأنه فأرة صغيرة أمام الفهد .

ولو ضربه الماموث لهرسه مثل القملة . ولكن نوح وقف ثابت القدمين وقلبه عامر بالأمل . فمد الماموث خرطومه

ولمس به جسمه ، ومد نوح يده فربت على خرطوم الماموث ، ثم انتزع بعض الأعشاب من الأرض وقدمها له عربون صداقة وتحالف بينهما ، وكان يدرك أنه يقوم بعمل عميق لا مثيل له ، فاضطرب قلبه بين جنبيه فرحاً واعتزازاً .

4 – التحالف بين الإنسان والماموث

رأى نام وغاو كيف أن الماموث اقترب من زعيمهما .

ولاحظا الفرق الهائل بين حجم نوح وذلك الحيوان ، فقالا :

– الآن سيدوسه الماموث ونظل وحيدين في مواجهة الأقزام والحيوانات والمياه .

ثم أبصرا يد نوح تربت على الحيوان فامتلأت روحهما بالفرح والاعتزاز ، وقال نام :

– لقد عقد نوح حلفاً مع الماموث ، إن نوح أقوى رجل بين البشر .

كان القمر يضيء السماء ، وقطعان الماموث نائمة وقد احتملت وجود الرجال الثلاثة أثناء النهار ، أما أثناء الليل فقد ظهر عليها الانزعاج ، إما لأنه تعرف حيلهم وألاعيبهم وتخشى على نفسها منهم ، أو لأن هناك سبباً آخر لا يعرفونه .

سأل نوح صاحبيه :

– هل نام وغاو يتحملان التعب ؟ وهل أقدامهما سريعة وصدورهما واسعة ؟

فأجاب نام :

– نمت طول النهار وأنا مستعد للحركة .

وأجاب غاو :

– يستطيع غاو أن يجري المسافة الفاصلة بيننا وبين الأقزام .

فقال نوح :

– حسن ، سنمضي إلى لقاء الأقزام وانتزاع النار .

فنهض الشابان وتبعا زعيمهما وساروا في الطريق المؤدية إلى مخيم الأقزام ، وتمهلوا قبل الوصول إليه ، وفجأة رأوا الدخان يتصاعد من ألسنة اللهيب وهو يغطي وجه القمر .

كان الأقزام نائمين وثلاثة منهم يوقدون النار ، ويحرسون الظلام . ورقد الرجال على الأرض يرقبونهم ، وعيونهم تكاد تخرج من محاجرها شوقاً للحصول على قطعة نار .

فكم تمنوا لو أنهم سرقوا غصناً ملتهباً منها ولن ينطفئ هذه المرة . لأنهم حملوا معهم بعض الأغصان القصيرة والتبن الذي يغذيها طول الطريق ، وسوف يحملونها داخل وعاء صغير من الحجارة الرقيقة المغطاة بقشور الأشجار تمنع عنها هبوب الريح . ولكن لا تحجب عنها الهواء ، ولكن كيف الوصول إليها ؟

قال نوح :

– سأكمن أنا هنا أما أنتما فتذهبان إلى ناحية السهول المحيطة بالمخيم ، وليحاول كل منكما أن تراه قبيلة الأقزام فيهرب أمامها بحيث يجذبها أبعد ما يكون عن المخيم . ولتكن لديكما الشجاعة فلا تهربا بحيث لا يعثرون لكما على أثر ، ثم التفا حول الغابة وسوف يكون لقاؤنا عند الصخور الحمراء .

وارتعد الشابان خوفاً فقد صعب عليهما أن يفترقا عن الزعيم ، ولكنهما أطاعا أمره ، واختفيا وراء الأشجار ، واقتربا من المخيم فأعطى الحراس إشارة الإنذار .

فنهض الأقزام إلى أسلحتهم ، وتجمعوا حول زعيمهم ، فوزعهم إلى ست مجموعات ثم انطلقوا لملاحقة نام وغاو .

ظل نوح مختبئاً يرقب النار التي يحرسها أربعة رجال من أقوى المحاربين ، وهبت الريح ملائمة فأبعدت رائحته عن أنوف الحراس ، وطغت رائحة بنات آوى ، فاقترب حوالي ستين ذراعاً من النار ، وكمن مدة طويلة ، كان القمر قد غاب وراء أشجار الصفصاف حين نهض وأطلق صرخة قتال .

فاجأ هجومه الحراس لحظة ، ولكن سرعان ما حملوا أسلحتهم ووقفوا محيطين به ، صرخ نوح :

– جاء إليكم ابن الفهد عبر السهوب والغابات والجبال والأنهار لأن قبيلته ليس لديها نار ، فإذا رضي الأقزام بأن يأخذ شعلة إلى القبيلة انسحب دون قتال .

وكانت لغة الذئاب أقرب إلى عقولهم من لغة البشر ، ورأوا أنه وحيد فتيقنوا من هلاكه ، وتراجع نوح لعلهم يتفرقون ولكنهم تجمعوا حوله .

رمى أحدهم رمحه فصفر قرب أذن نوح وأصاب كتفه إصابة خفيفة فحمله ليوفر سلاحه ، ورماه رمية قوية أصابت القزم في عنقه فطوحت به أرضاً ، وهلك .

أطلق أصحابه نباحاً كنباح الكلاب ورموا رماحهم في وقت واحد فانبطح نوح أرضاً ولم ينهض ، فظنه مفترسو البشر قد مات .

وتقدموا ليجهزوا عليه فطعن أحدهم في بطنه فسقط وبقي اثنان حاولا تطويقه فدار حولهما حتى أصبحت النار وراءه ، وفكر :

– نوح أسرع من الأقزام وسيأخذ النار بعد أن فقد الأقزام محاربين اثنين .

وقفز ليأخذ غصناً مشتعلاً فرأى أن النار مطفأة ولم يبق فيها سوى الرماد ، ولحق به القزمان .

5 – من أجل النار

توقف القزمان أمامه وهما يهزان رمحيهما ، فرمى الأول رمحه فصده نوح بهراوته وسقط في الرماد ، ورمى الثاني فلم يصبه فحمل كل منهما هراوته وهجم على نوح .

قبل أن يصل أحدهما إليه طعنه نوح برمحه .

ووصل إليه الثاني فضربه بهراوته ولو أصابت رأس نوح لهلك ، ولكنه تجنبها ، فاحتكت بكتفه واستعاد توازنه . لم يبق أمامه سوى محارب واحد ولكنه ضخم الجثة قوي العضلات .

جعل الرجلان يتراشقان بنظرات نارية ، وأحدهما يدور حول الآخر يتفحصه ويبحث عن نقطة ضعفه يطعنه منها ، ورأى القزم أن الأجدى له حمل هراوته بيديه الاثنتين ، وبدأ هجومه .

اصطدمت الهراوتان وكلتاهما مصنوعتان من خشب السنديان المتين ، وحين جدَّد القزم هجمته لاقى الفراغ ، إذ

ابتعد عنه نوح خطوة وضربه بهراوته فتلقاها القزم وقد اهتزت لها كل أطرافه .

وما زالا يصطرعان ويتبادلان الضربات حتى تعثر القزم بجثة صاحبه فأهوى نوح بهراوته وسمع تكسر عظامه ، فسقط القزم وصرخ صرخة ضاعت في الموت .

فقفز نوح وهو يصيح :

- نوح سيد النار .

وحين عاد إليه هدوءه فكر بطريقة مجدية لنقل النار .

وكم كانت فرحته عظيمة حينما أبصر في ناحيةٍ قفص النار الذي يحميها من الموت .

وهو عش من القشور يحيط بحجارة رقيقة تشتعل داخلها قطعة نار تغذيها الأعشاب .

لم يكن نوح ليجهل أي عرف من أعراف القبيلة . فنفخ في النار قليلاً وغمر القشور المحيطة بها بالماء لئلا تحترق ، ثم دسَّ فيها بعض الأعشاب اليابسة . وحمل معه بعض الفؤوس والرماح ، ثم ألقى نظرة أخيرة على المخيم فرأى اثنين من

أعدائه ما يزالان يتحركان فأجهز عليهما ، لأن قانون الغابة يقضي بذلك وصرخ :

– لم يرد الأقزام أن يعطوا لابن الفهد النار ، فلم يعد لديهم نار ، وسوف يتجولون في الظلام وفي البرد حتى يلحقوا بقبيلتهم ، كذلك أصبح آل أولمار أقوى من الأقزام .

وانطلق إلى الصخرة الحمراء ينتظر صاحبيه ، ولم يدهش لتأخرهما لأن المسافة بعيدة ولا بد أن الأقزام يلاحقونهم .

بعد أن غطى جروحه بأوراق الصفصاف جلس قرب شعلة النار التي يلتمع فيها مصيره .

وسرعان ما أبصر نام قادماً وهو يلهث وسأله الزعيم :

– هل فقد الأقزام آثار نام ؟

سبقهم نام إلى شاطئ النهر ، ثم توقف فلم يسمع ولم ير ولم يشم رائحة مفترسي البشر . فربت نوح على رقبته وسأله :

– وما هو مصير غاو ؟

– لم أره لأنه مضى في اتجاه آخر .

– لننتظر غاو ، والآن انظر !

ومشى به إلى حفرة في الأرض مغطاة بالأغصان وجذب منها قفص النار وقال له :

– حصل نوح على النار .

توسعت عينا نام فسجد أمام ابن الفهد وهمس :

– نوح أدهى من كل رجال القبيلة ، وسيكون زعيم الأولمار الكبير ، ولا يقف عدو في طريقه .

غرقا في أحلامهما مدة طويلة ، فالمستقبل فضاء عامر بالآمال . ولكن حينما بدأ القمر يكبر في السماء الشرقية بدأ القلق يغزو صدرهما ، وقال الزعيم :

– أين غاو ؟ ألم يضلل الأقزام ؟ هل أوقفه المستنقع أم سقط في شَرَك ؟

خيم الصمت على السهول ، وسكنت الحيوانات الليلية ولم يسمع سوى خرير مياه النهر .

فنهض نوح وقال :

– نوح ذاهب للبحث عن غاو ، نام يرعى النار . ويصب الماء على القشور ويدس العشب ليطعم النار ، لن يتأخر نوح ، سيذهب إلى النهر ثم يعود .

قال الشاب مفتخراً :

– سيرعى نام النار كما يرعى حياته . أمه علمته كيف يرعاها ، وهو صغير كذؤيب ، إذا لم يرجع نوح ، حينما تصل الشمس إلى رأس شجر الصفصاف يذهب نام إلى قطيع الماموث ، وإذا لم يرجع نوح آخر النهار يمضي نام نحو بلاد الأولمار .

وابتعد . كان جسده كله يرتعد بالقلق ، والتفت عدة مرات لينظر إلى نام لعله يلمح قفص النار ، وتخيل أنه ما يزال يبصر من بعيد نوره الضئيل الذي اختلط بضوء القمر .

6 – البحث عن غاو

كان عليه أن يرجع إلى مخيم مفترسي البشر للبحث عن غاو ، ومشى بطيئاً ، لأن كتفه تلتهب تحت أوراق الصفصاف ، ورأسه يدوي : فأحس بألم حيث أصابته الهراوة ، وشعر بالكآبة لأنه حصل على النار ، ولكن مهمته ما تزال صعبة وليست أكيدة .

وقف عند النقطة التي افترق فيها الأقزام ، وميز الاتجاه الذي مشى فيه مطاردو غاو ، وسار فيه أربعة آلاف ذراع ، ولكنه توقف ، فقد غطت السحب القمر ، ولم يظهر الفجر بعد .

استراح نوح قليلاً ، وانسكبت بضع قطرات من أبدية الزمان خلال حياة الغابة العابرة ، ثم ظهر ضياء يتنقل بين الذرى .

نهض نوح شاحباً كرماد النار المحترقة ، وقضم قطعة لحم جافة ، وانحنى إلى الأرض باحثاً عن أثر غاو ، وتبعه عدة

آلاف من الأذرع ، وسار عبر سهب قليل الأشجار ، حتى وصل أرضاً قاحلة تغمرها الرمال ، ثم صعد الهضبة وانحدر إلى ضفة النهر الذي عبره غاو حتماً ، وصوب نظره إلى آثار الأقدام ، فوجد أنها مختلطة ، فظن أن مجموعتين من الأقزام قد التقتا ، ولابد أنهم حاصروا غاو .

أصبحت الأرض صلبة ، وأصبح لون الغرانيت أزرق ، وبدت له في الأفق هضبة ، فعزم نوح على ارتقائها ، وتسلل بين الشجيرات حتى وصل إلى ذروتها ، فرأى غاو على شريط من الأرض الحمراء ، ووراءه بحوالي مائة ذراع انتشر المحاربون الأقزام ، ونحو الشمال تقدمت مجموعة ثانية ، وتقدمت مجموعة ثالثة من الجنوب الغربي ، ولم يعد أمام غاو مجال للهرب إلا إذا جرى بأقصى سرعته ، ولكنه لم يشعر بالخطر فتابع مسيرته بخط مستقيم .

ألقى ابن الفهد نظرة شاملة على الموقع ، ثم انحدر من الهضبة ، وجرى على طول الأجمات من الناحية الغربية ، ثم انعطف من ناحية الأعشاب المرتفعة ، ذات اللونين الأزرق

والأحمر ، وكانت سرعته أكثر من سرعة غاو ومطارديه ، فقد وصل إلى جانب الغابة قبل أن يدخلها غاو .

عزم نوح على الظهور ، فبرز أمام الأعداء وهو يصرخ صرخة المعركة ، فتوقفت الجماعات المطاردة لغاو وهي تزأر ، وكم كان فرح غاو عظيماً وهو يسمع صوت زعيمه ، فأطلق ساقيه للريح يجري نحوه ، وكانت ناحية الغرب مغلقة ، تسدها جماعة الأقزام وكتلة من الصخور يصعب اجتيازها ، ولم يعد ممكناً الانسحاب من الجنوب الغربي الذي تجمعت فيه عصابة أخرى .

كان نوح يجري مع صاحبه ناحية الصخور ، فأطلق الأقزام صيحات الحرب ، ورصوا صفوفهم ، وأصبحوا على خمسين ذراعاً من الرجلين ، ورموا حرابهم ، لكن نوح عبر حاجزاً من الشجيرات ، وهو يجر صديقه معه نحو أعلى الهضبة ، وحين خرجا من الناحية الثانية وجدا ثلاثة أقزام يقطعون عليهم الطريق ، وسمعا أصوات المحاربين متوجهة نحوهما ، فلم يعد أمامهما من خيار سوى القتال ، فهجم نوح

على الرجل عن يساره ، وبضربة هراوة أسقط منه سلاحه ، وبضربة ثانية قتله ، وهجم الاثنان الآخران على غاو وفي عزمهما أن ينتهيا منه ليلتفتا إلى نوح .

فرمى غاو رمحه ، فأصاب أحدهما إصابة خفيفة ، وقبل أن يضربه بفأسه أصيب في صدره ، وكاد يسقط على الأرض ، حين وصل نوح وانهار بهراوته على القزم فقتله ، وأما الثاني فتراجع نحو مجموعة من المحاربين ، وصلت تجري بأقصى سرعتها واحتمى بهم .

فات الأوان ، لقد هرب المحاربان من الحصار ، وتوجها نحو الغرب بحيث لا يقطع أحد عليهما طريق الفرار ، وكانا يوسعان المسافة بينهما وبين ملاحقيهما دون توقف .

كانا يأملان أن ييأس الأقزام من الإمساك بهما ، ولكن مفترسي البشر تابعوا جريهم وراءهم .

ضعف غاو لأن جرحه ينـــزف بشدة ، وقدر نوح أنهما إذا لم يصلا إلى قطيع الماموث فسوف تلحق بهما طليعة المطاردين .

وهمس المحارب الشاب :

– عينا غاو معتمتان .. وأذناه تصفران .. ليتابع ابن الفهد طريقه وحيداً .. سيموت غاو من أجل النار ، ومن أجل الزعيم .

التفت نوح نحو الأقزام ، وصرخ صرخة هائلة ، ثم حمل غاو على ظهره ، وتابع جريه ، وكان جرحه يؤلمه ، ولكنه لم يبال به ، وانطلق بين الأشجار ، والمسافة بينه وبين مطارديه تتناقص ، وكان يسمع خطواتهم وراءه ، فيعرف مدى اقترابهم منه .

لقد أصبحوا على بعد خمسمائة ذراع ، ثم أربعمائة ، ثم مائتين ، حينئذٍ وضع غاو على الأرض .

كانت هذه الوقفة ملائمة للمطاردين ، ولكن غاو أفاق من إغمائه ، وأمسك رمحه بيده ليتصدى لهم ، وخاطبه نوح قائلاً :

– إذا كانت لديك القوة فاهرب .

وتردد الشاب ، ولكن عاد نوح فصرخ فيه : اهرب .

فجرى بأقصى سرعته .

وقف نوح وهو يحمل هراوته ورمحه ، وبدأ يتراجع بخطوات بطيئة ، فتردد الأقزام ، ثم أصدر زعيمهم الأمر فهاجموه ، وتطايرت الرماح من حوله ، واقترب منه اثنان فصرعهما ، وتابع هربه .

استؤنفت المطاردة ، فاستجمع قواه وجرى حتى وصل إلى أعلى الهضبة ، فوقف فوقها وهتف :

– أيها النهر الكبير .. أيها الماموث ! .

كان النهر يسيل هادئاً بين أشجار الصفصاف ، والقطيع يرعى العشب هانئاً ، ولا يفصل الهاربين عن أعدائهم سوى مائتي ذراع ، وكانت هذه آخر فرصة أمامهما .

أطلق الأقزام صرخات المعركة ، وحافظوا على المسافة الفاصلة بينهم وبين الهاربين ، وكانوا يأملون أن يدخلا بين قطيع الماموث الذي لا يرغب في وجود الغرباء ، فيدوسهما بأقدامه .

التفت نوح نحو مطارديه وعيناه تقدحان بالشرر ، وصاح :

- آل أولمار عقدوا حلفاً مع الماموث .

وأطلق ضحكة عالية ، حينئذٍ وصل قطيع الماموث ، وكم كانت دهشة مفترسي البشر عظيمة وهم يرون الماموث الكبير يضع خرطومه على كتف نوح ، وتصايح الأقزام خائفين ، وتراجعوا وهم يتدافعون ، لأنهم يعلمون جيداً أن لا أحد قادر على محاربة هذه القطعان الهائلة .

7 – الحياة لدى الماموث

اعتنى نام بالنار أحسن عناية ، فكانت تلتهب صافية في قفصها ، حينما عاد إليه نوح . وعلى الرغم من جرحه الذي يؤلمه ، ورأسه الذي يدوي كخلية النحل ، فقد كان سعيداً وفي صدره يضطرب الأمل الإنساني ، وحيثما تلفت يرى وجه جملا ، يراه في الأعشاب والأشجار وعلى سطح الماء .

حينما جلس نوح يحلم أمام النار ، جمع بعض الأعشاب والأغصان اليابسة احتفالاً بزعيم الماموث ، لأن التحالف لا يدوم إلا إذا تدعم يوماً بعد يوم ، وبحث نام عن ملجأ بين جماعة الماموث واستلقى فيه .

قال نام :

– إذا غادر الماموث المراعي فسوف أوقظ نوح .

فأجابه نوح :

– المرعى خصيب ، وسوف يرعاه الماموث حتى المساء .

ثم مضى في سبات عميق كأنه القتيل .

وحينما استيقظ كانت الشمس تميل إلى الغروب ، فراقب النار أولاً ليطمئن عليها ، ثم سأل صاحبه :

- هل عاد الأقزام ؟

لم يبتعدوا .. إنهم ينتظرون على حافة النهر ، قرب الجزيرة ذات أشجار الصفصاف .

فقال :

- هذا حسن ، سيصيبهم البرد وليس لديهم نار ، فيسأمون ويرجعون إلى قبيلتهم ، فليرقد نام أيضاً .

قطف نوح كمية من الحشيش الأخضر ، وتقدم بها نحو زعيم الماموث الذي توقف عن الأكل ، وخطا إليه بضع خطوات ، فذاق الحشيش ثم مد إليه خرطومه ليربت عليه ، فخاطبه نوح قائلاً :

- يا زعيم الماموث ! إن الأقزام لم يغادروا النهر ، وآل أولمار أقوى منهم ، ولكنهم ليسوا سوى ثلاثة ، وهم ثلاث مرات عدد أصابع اليدين ، وسوف يقتلوننا إذا ابتعدنا عن الماموث .

كان الماموث قد أكل وشبع من الجذور والحبوب ، وقعد يتأمل الشمس وقد لف خرطومه حول صدر الرجل ، فتأكد نوح أن تحالفهما قد توطد ، وأنه يستطيع البقاء حتى تشفى جراحه وجراح غاو في مخيم الماموث ، بمنجاة من الأقزام ومن الأسد والنمر والدب الرمادي . ولعله يسمح له بإشعال النار المفترسة ، وتذوق الجذور والكستناء واللحوم المشوية .

انقضت ثلاثة أيام منذ أن بدأ نوح وغاو ونام يعيشون لدى الماموث . وما يزال الأقزام في أعالي النهر الكبير أملاً في القبض على الرجال الذين مكروا بهم وتحدوا قوتهم وسرقوا نارهم .

لم يعد نوح يخشاهم إذ توطد تحالفه مع الماموث ، وهو يستعيد قواه يوماً بعد يوم ، فلا رأسه يؤلمه ، وقد التأمت جراح كتفه ، وزالت عنه الحمى .

كان نام وغاو يهزان رمحيهما وهما يطلقان صرخات الحرب .

وأما الأقزام فكانوا يتجولون بين حقول القصب في السهوب ، أو تحت أشجار الصفصاف ، ويمنعون آل أولمار من الرجوع إلى وطنهم ، وبذلك يهددون مستقبلهم ، فتوجب عليهم مغادرة الماموث والعودة إلى الشمال .

فكر ابن الفهد في وسيلة يبعد بها العدو عن طريقه ، واستمر على الإحسان إلى زعيم الماموث والترفق به ، فكان يقدم إليه الطعام الطازج ثلاث مرات يومياً ، ويقضي زمناً طويلاً بقربه ، يحاول تعليمه لغته وتعلم كلام الماموث ، أما الماموث فقد يهز رأسه مفكراً ، أو يلتمع نور في عينيه السوداوين ، أو يسدل جفنيه ضاحكاً .

وفكر نوح : الماموث الكبير يفهم نوح ، ولكن نوح لا يفهمه .

تدريجياً تعلم أحدهما مناداة الآخر باسمه ، فيصدر الماموث هريراً ويحاول نوح النطق ببعض الحروف ، وأحياناً يجلس نوح على الأرض ، فيلهو الماموث معه ، ويرفعه بخرطومه بكل هدوء ثم يرده إلى مكانه .

لكي يحقق نوح مبتغاه ، طلب من صاحبيه أن يتوددا إلى اثنين من الماموث كانا في المرتبة المباشرة بعد الماموث الكبير .

وأحس آل أولمار بسعادة بالغة .

ذات يوم جمع نوح الأغصان والأعشاب اليابسة ، وجازف بأن أشعل النار فيها ، كان الجو بارداً والريح ضعيفة ، فارتفع اللهيب أسود اللون في البداية ، ثم صفا حتى اتخذ لون الفجر ، وتوافدت الماموث من كل الأنحاء تمد رؤوسها متطلعة ، وقد ظهر القلق في عيونها ، وشعر نوح بذلك فتوجه إلى زعيمها قائلاً :

- نار أولمار لا تهرب ، ولا تحرق إلا الأعشاب ، ولا ترمي نفسها على الماموث ، نوح حبسها في التراب حيث لا تجد غذاءها .

اقترب الزعيم الكبير من النار وقر رأى أن أصدقاءه من البشر غير خائفين منها ، وكما يحدث منذ آلاف السنين فإن ما يفعله الزعيم يقلده فيه أتباعه ، وانتشر اليقين بين قطعان

الماموث أن هذه النار لا تشبه النار التي تحرق السهوب والغابات .

في اليوم السادس أصبح حضور الأقزام أمراً لا يطاق ، فهتف نوح :

– لن يتغذى الأقزام بلحم نوح وغاو ونام !

ثم دعا إليه صاحبيه ، وقال لهما :

– اصطحبا الماموثين اللذين ألِفاكما ، وأدعو أنا الزعيم لنقاتل الأقزام مفترسي البشر .

حين انطلق الرجال الثلاثة ومعهم هذه الحيوانات أيقنوا بالنصر .

ولكن الماموث الكبير توقف في منتصف الطريق وكأنه نادم على تفريطه في مسؤوليته تجاه القطيع ، فخاطبه نوح قائلاً :

– لقد اختبأ الأقزام داخل الأدغال ، وإذا ساعَدَنا الماموث على قتالهم فلن يجرؤوا على الاقتراب من المخيم .

ولكن الماموث ظل جامداً وهو يتأمل قطيعه ، ولم يتبع نوح في مغامرته . لم يثنه هذا عن عزمه ، فهو يعلم أن الأقزام على مرمى سهم منه . فانطلق بين الأشجار يتبعه نام وغاو ، وتهاطلت عليهم السهام ، فوقف نوح فوق هضبة وأطلق صرخة الحرب .

وكأنما فهم الماموث الكبير مقصده ، فرفع خرطومه ونادى القطيع ، وهجموا على مفترسي البشر .

كان نوح يلوح بهراوته فوق رأسه ، وأما نام وغاو فقد أمسك كل منهما فأسه بيد ورمحه بيد ثانية ، وهما يصرخان .

أصاب الذعر جماعة الأقزام فتفرقوا في كل اتجاه ، ولكن الغضب تمكن من الماموث أيضاً ، فلاحقوهم كما فعلوا في تلك المعركة التي نشبت بينهم وبين الثيران على ضفة النهر الكبير .

أمسك الماموث الكبير أول الهاربين بخرطومه ورماه في الهواء ، وما إن سقط على الأرض حتى داسه بقدمه كما تداس البعوضة . فكنت ترى الأقزام على أنياب الماموث أو

تحت أقدامها ، حتى لقد تجرأت الصغار ، وجربت قوها في مفترسي البشر .

لم تكن معركة بل مذبحة ، وذهب ضحيتها الأقزام ، وتناثرت أشلاؤهم من ضفة النهر الكبير حتى أطراف الغابة ، وأما الناجون من الأقزام فقد توجهوا هاربين إلى عشيرقم .

لم تتوقف الماموث عن زحفها ، بل مشت على ضفاف النهر بأجسامها الثقيلة وخراطيمها الطويلة ، ولا شيء يقف في طريقها ، تدوس الأعشاب وتــنــزع الأشجار بخراطيمها التي تستعملها مثلما يستعمل الإنسان يديه ، وأما أنياها فتفلح الأرض ، فإذا اعترضها أسد قتلته بضربة واحدة من أقدامها .

لا شيء يحد من انتصارها ، والزمان ملك لها والمكان ، فمن يجرؤ على إقلاق راحتها ؟ ومن يمنع أجيالها من الانتشار على سطح الأرض ؟

هكذا أمضى نوح في صحبة الماموث أياماً سعيدة ، ولولا أن طيف جملا يعوده يوماً بعد يوم لما تمنى الرجوع إلى العشيرة ، وتبين له أن الماموث لطفاء المعشر ، أوفياء ، لايظلم

بعضها بعضاً كما يفعل البشر . ولم يكن زعيمها مثل فاوهم يقود القطيع بالتخويف والترهيب ، فلا تجد أحداً فيه سيئ الخلق ، أو شرساً مثل آغو وأخويه .

ما زالت الماموث تنحدر بمحاذاة الساحل ، وتبتعد عن الطريق المؤدية إلى عشيرة آل أولمار ، لأن النهر الكبير يتجه نحو الشمال ، ثم ينحرف باتجاه الشرق ثم إلى الجنوب .

أحس نوح بالقلق ، فإذا لم يترك القطيع الساحل فإنه مضطر إلى تركه واتخاذ طريق سواه .

ذات يوم توقف نوح أمام زعيم الماموث وقال له :

– لقد عقد ابن الفهد حلفاً مع عشيرة الماموث ، وتبعها فصولاً لا تحصى ، ولكنه مشتاق لجملا على ضفاف المستنقعات ، وطريقه إلى الشمال نحو الغرب ، لماذا لا يترك الماموث ضفاف النهر ؟

وكان مستنداً إلى ناب الماموث فنظر إليه طويلاً ثم هز رأسه وكأنما يرفض اقتراحه . وفسر نوح السبب بأن الماموث تسير بمحاذاة النهر لحاجتها إلى الماء .

ولم يجد بداً من مغادرة القطيع ، فنادى صاحبيه وانطلقوا . وحين اختفى عن ناظريه آخر القطيع صعد على هضبة ، وتأمل من بعيد الزعيم الذي استضافه وأنقذه من الأقزام ، كان قلبه عامراً بالأحزان ، والألم والجزع يسكنانه ، فمد بصره نحو الشمال الغربي إلى السهوب وشجيرات الخريف ، فأحس بضعفه الإنساني ، وفاض قلبه بالحنين إلى الماموث ، وإلى قوتها الجبارة .

الجزء الثالث

1 — الأقزام الحمر

تماطلت الأمطار فخاض نوح ونام وغاو في الأراضي الموحلة وتعلقوا بالجذور المكسورة ، وانطلقوا من هضبة إلى هضبة والتجؤوا إلى كهوف في الصخور ، أو أخاديد في الأرض وكان فصل ظهور نبات الفطر .

الآن وقد أصبحت لديهم نار يستطيعون أكل الفطر مشوياً كالكباب ، أو مبسوطاً على قطعة صُوَّان ، كانت النار فرحهم وعذابهم ، فإذا هبت زوبعة أو عصف المطر حرصوا عليها بكل ما أوتوا من دهاء وخبرة .

وانتظروا حتى تهدأ العاصفة أو يتناقص هطول المطر ، فتأخروا عن الوصول ، وأضاعوا أياماً وأياماً ، وكانوا يتوجهون نحو بلاد الأولمار مهتدين بالشمس .

وصلوا إلى أرض رملية تتقاطع فيها صخور الغرانيت والبازلت ، ومرت خمسة أيام لم يروا فيها نهاية للسهول ، وأحسوا بالجوع ولم يستطيعوا الإمساك بحيوان يؤكل ، وشعروا بالعطش فلم يجدوا الماء لأن الرمل لا يمسكه . وكم من مرة كادت تموت النار بين أيديهم .

وفي اليوم السادس وصلوا إلى سهول مرتفعة الأعشاب ، ثم إلى غابة تنمو فيها أشجار الصفصاف . وتكثر فيها الغدران ، وفجأة غامت السماء ثم أرعدت وهاطل المطر غزيراً ، فلجؤوا إلى جرف صخرة ، وأشعلوا ناراً صغيرة يتدفؤون بها .

تولى نوح الحراسة أولاً ثم عوَّضه نام ، فكان يتمشى قرب النار حريصاً على تغذيتها بالأعشاب والأغصان ، ولمح شبحاً من وراء اللهيب والدخان ، ثم تحرك ناحية الغابة واختفى في الظلام ، أحس الشاب بالفزع من المجهول وكان يدرك بغريزته أن شيئاً ما يهدده وأن أشخاصاً قد اقتربوا من النار ثم هربوا ، فأيقظ الزعيم .

نظر نوح في الظلام وعرف أن نام لم يكن واهماً ، فقد رأى على الأرض مواطىء أقدامهم ، وبعض الأغصان المتكسرة ، فهل يكونون من البشر ؟ طعن النار ثلاث طعنات برمحه فارتفع لهيبها ولمح أشباحاً تتوارى بعيداً فقال لصاحبه : اعتن بالنار !

ومضى نوح في العتمة ، وتتبع الآثار على الأرض الطينية . كان الظلام كثيفاً والضباب يحجب الرؤية ، ولكنه تأكد أنهم من البشر . وأحس برعدة تسري في أطرافه ، لأن الخطر أعظم ، فالآخرون يرونهم قرب النار وهم لا يعرفون عددهم ولا قوتهم .

رجع نوح إلى صاحبيه بهدوء وحين أبصر النار جرى بأقصى سرعته ، وهمس وهو يشير بإصبعه نحو الشرق :

– البشر هنا .

ثم قال :

– يجب تغذية النار في الأقفاص ، وتولى هذه المهمة نام وغاو على حين بدأ يرمي بأغصان الأشجار اليابسة في النار

لتكون حاجزاً مرتفعاً يمنع دخول الغرباء وينير ما حول المخيم . وحين أصبحت الأقفاص جاهزة والاحتياطي من القش والأغصان كافياً أمر نوح بالانطلاق .

وقت الفجر توقف هطول المطر ، وظهر شعاع أبيض وراء الغيوم ، وكان المحاربون الثلاثة يصعدون هضبة ، فلما وصلوا أعلاها رأوا السهوب والأدغال والغابات بلون أسود وفي وسطها جزر حمراء .

فقال نام : أضاع البشر آثارنا .

فأجابه نوح : البشر يلاحقوننا .

وفي الحال ظهرت أشباح قرب النهر ، ثم تبعها ثلاثون شخصاً ، وعلى الرغم من أن المسافة بعيدة فقد تبين لنوح أن أجسامهم قصيرة ولكنه لم يعرف نوعية سلاحهم ، ولم يروا آل أولمار المختبئين وراء الأشجار ، فكانوا يتوقفون ثم يمشون بعد أن يتفحصوا الآثار . ثم ازداد عددهم فقدره نوح بأكثر من خمسين رجلاً .

ثم اقتربوا فاستطاع أن يتبين أحجامهم ، وأن جبهة الطويل فيهم لا تصل إلى صدر نوح ، وكانت رؤوسهم ضخمة ووجوههم مثلثة ولون بشرتهم بلون القرمز ، يتصاعد الشرر من عيونهم ، ولكنهم عامرون بالحيوية .

حين لمحوا آل أولمار أطلقوا صراخاً شبيهاً بنعيب الغربان وهزوا رماحهم وفؤوسهم .

وتأملهم نوح منذهلاً فلولا الشعر المتفرق على خدودهم ، والهرم البادي على بعضهم ، ولولا هذه الرماح التي يحملونها لظنهم أطفالاً .

ولم يتصور لحظة أنهم يجازفون بخوض معركة ، وقد وقفوا مترددين ، ولكنهم تراجعوا حينما نهض آل أولمار يحملون فؤوسهم وحرابهم ويهزون هراواتهم ، وتردد صوت نوح في السهوب كأنه زئير الأسد تفزع له قلوب العصافير ، والواضح أنهم لم يكونوا جبناء ، فقد رجعوا وهم يهددون بأسلحتهم .

ثم توزعوا على نصف دائرة ، فأدرك أنهم يسعون لتطويقهم ، وخشي مكرهم أكثر من خشيته قوتهم ، فأمر بالانسحاب ، ومشوا مدة ثم أمرهم بالتوقف وإشعال النار ، وجعل يراقب الأعداء . تفقد نوح أسلحته ثم جرى نحو الأقزام الحمر بكل سرعته ، فهربوا أمامه وهم يصرخون ثم وقفوا ، وحين وصل نوح على مسمع ممن يبدو أنه زعيمهم هتف :

– نوح ابن الفهد لا يريد شراً بالبشر ولا يضرهم إذا توقفوا عن ملاحقته .

كانوا يصغون إليه بملامح جامدة ، وحين وقف أحاطوا به ، فأدار نوح حجراً في مقلاعه ، وقال :

– ابن الفهد سيضرب الأقزام الحمر .

وانطلقت خمس حراب أو ست فلم تصل إليه ، فرمى نوح حجراً أصاب هدفه وسقط رجل أرضاً ، ورمى حجراً ثانياً أخطأ هدفه ، أما الثالث فأصاب واحداً منهم في صدره ،

وخدعهم بأن حرك حجراً رابعاً فوق رأسه ولكنه هز رمحه فأرعبهم .

كان الأقزام الحمر يستخدمون لغة الإشارات أكثر من اللغة المنطوقة ، وعلموا أن الرمح أشد خطراً من الحجارة ، فانسحب المتقدمون إلى أصحابهم وتابع نوح سيره ببطء ، فمشوا وراءه على مسافة بعيدة ، وكلما تجاوز أحدهم أصحابه زمجر نوح عالياً فيعود إلى جماعته .

ابتعد آل أولمار عنهم طول النهار ، وحين توقفوا لم يجدوا للأقزام الحمر أثراً .

اقترب الليل ، واصطبغت الشمس بلون الدم القاني ، ثم اضطربت في الأفق وسقطت في البحيرات .

2 – الجرف الغرانيتي

انقضى الليل ، وحين انتشر النهار كأنه ضباب فضي ظهرت الأرض بلون كئيب . ومياهها بلا حدود .

لو أنهم ابتعدوا عن الضفاف لواجهوا الأقزام الحمر ، لذلك آثروا السير على مشارف المستنقعات بحثاً عن مهرب لهم .

نفد منهم الزاد ، فاقتربوا من الشاطئ حيث الصيد وفير .

فصاد نوح ونام عدداً من الأسماك ثم أشعلوا النار وشووها ، وكم أحسوا بالنشوة وهم يتنشقون رائحة اللحم المشوي ! فالحياة بهيجة وأجسادهم عامرة بالعافية .

وظنوا أنهم تخلصوا من الأقزام الحمر ، لكن حينما اندفعت بعض الحيوانات من الغابة ، عرف نوح أنها هاربة من عدو خطير ، فنهض واستطاع أن يلمح أشخاصاً يتوارون خلف الأشجار .

قال : لقد عاد الأقزام الحمر !

كانت تمتد أمامهم مساحة من الأرض ملائمة للفرار بين المستنقعات ، فسارعوا إلى حمل أقفاصهم وأسلحتهم وما بقي معهم من غذاء .

وأسرع الهاربون نحو الأرض الممتدة أمامهم فكانت تضيق ولا تسمح لهم بالركض ، فعادوا أدراجهم ، ثم استأنفوا جريهم من ناحية ثانية والأقزام الحمر يحيطون بهم ، حتى وجدوا أنفسهم فوق صخور غرانيتية وعن يمينهم المستنقعات العميقة .

أصبح الانسحاب مستحيلاً ولا مناص من القتال ، والمكان الذي هم فيه ليس ملائماً لهم إذ يتيح للأقزام الحمر محاصرتهم .

ففضلوا المكوث في منخفض من الأرض الغرانيتية ليكونوا في مأمن من المفاجآت إذا أشعلوا النار .

وارتفعت الأصوات من كل ناحية فعرف ابن الفهد أن الأقزام الحمر يجرون إلى حتفهم بأقدامهم .

تهاطلت السهام عليه ولكنها لم تصبه فهتف قائلاً :

– إن سواعد الأقزام الحمر ضعيفة كسواعد الأطفال .

وكان يقتل رجلاً منهم بكل ضربة من هراوته أو فأسه ، وتراجع أمامهم يستدرجهم حتى وصل إلى جانب جُرف لا يتسع إلا لعدد قليل من الرجال . مما يضطر الأقزام الحمر إلى القتال وهم محصورون داخل الممر الضيق ، ولن يجازف أحد بالسباحة في المستنقعات لعمقها .

عند الغروب كان الأقزام الحمر يتدافعون وكأنهم أبناء آوى وقفت على قوائمها الخلفية . وأضاءت نار آل أولمار سطح المستنقع بلون أحمر ، ووراء الأجمات والشجيرات ، كانت نار المهاجمين تتوقد وتخترق الظلام .

اقترب الفجر فلاحظ آل أولمار أن الشجيرات الصغيرة تنتقل من مكانها وتتقدم ناحيتهم وأن الأقزام يضيقون عليهم الخناق وقد عزموا على الهجوم الحاسم .

كان آل أولمار في أسوأ حال ، فقد نفد زادهم فصادوا بعض الأسماك الصغيرة التي لا تشبع جوع ثلاثة من المحاربين

الأشداء . مساء اليوم الثالث أصابت الحيرة نوح . فدعّم المخبأ ، وهو يعلم أنه إذا استمرت الحال هكذا فسوف ينال الهزال منهم ويصبحون أضعف من الأقزام الحمر غير قادرين على حمل هراواتهم .

وأدرك بغريزته أنه ينبغي له أن يشق طريق النجاة بين هذه الجموع التي تحاصره ، وكانت تلك مهمة مستحيلة .

ورمى ببصره إلى السماء فرأى الهلال يناضل بين الغيوم ونجمة زرقاء قريبة تحاول الوصول إليه .

وفجأة اخترق صوت مرتفع هدوء الليل ، وخرج من الماء شيء ما لم يتبينه نوح ، ثم ظهر على شكل رجل وكان يزحف والدم يسيل من ساقه وله خلقة عجيبة : ليس له كتفان ورأسه متطاول . وظن أن الأقزام الحمر لم يلمحوه ، ولكن سرعان ما تهاطلت رماحهم وحرابهم .

فلم يتردد نوح في حمله ولم يفكر بأنه قد يكون عدواً لهم . ورماه الأقزام بحجر أصاب رأسه ، وجرحه سهم في

كتفه ولكنه ابتعد عن مرمى أسلحتهم ولم يجرؤوا على القيام بالهجوم الشامل .

3 - ليلة فوق المستنقع

حرك نوح النار حتى اللهيب . ووضع الرجل بقربها على العشب اليابس وجعل يتأمله بدهشة وحذر . كان مخلوقاً مختلفاً تماماً عن آل أولمار والأقزام الحمر .

إذ أن جمجمته طويلة ، نحيلة ، فيها بعض الشعيرات المتباعدة وعيناه متقاربتان مملوءتان بالأسى والخوف ، وكأنهما لا تنظران إلى شيء . وخداه غائران وفكه إلى الأسفل متقدم كفك الفأر . لكن المذهل فيه هو جسده الأسطواني الذي ليس له كتفان . وتبرز منه ذراعان كذراعي التمساح . وأما جلده فخشن وسميك كأنما تغطيه الحراشف ، وله تجاعيد كثيرة . وتذكر نوح حين رآه الثعبان والحردون بآن واحد .

لم يتحرك الرجل . وحيناً بعد حين يرتفع جفناه ويلقي بنظرة غائمة على الرجال الثلاثة . ويتنفس بصوت مرتفع كأنه صوت شكوى . وأحس نام وغاو لرؤيته بالتقزز ، وتمنوا

لو يرمونه إلى الماء . وأما نوح فقد اهتم به لأنه أنقذه من الموت ، ودفعه الفضول إلى معرفة حكايته .

مرت ليلة أخرى . وفي الصباح رمى الأقزام بعض الرماح قرب المخيم ، وهم يعبرون عن فرحهم بالانتصار .

كانت الليلة الأخيرة . وفي المساء أحكم الأقزام الحمر تدعيم ملجئهم واستعدوا للهجوم . كان آل أولمار يرقبون الماء بيأس والجوع يعضّ بشدة معدهم .

على نور الصباح بدا الجريح على حال عجيبة : إذ كانت عيناه تتوقدان كالياقوت ، وجسمه الأسطواني يتلوى كما تتلوى الدودة ، ويده الخشنة تنطوي إلى الوراء .

وفجأة أمسك حربة ورمى بها ورقة نيلوفر فخرجت من الماء فقاعات ، ثم طفا على السطح سرطان ضخم جذبه إليه . وهلل نام وغاو فرحاً ، فالسرطان يكفي طعاماً لعدد من الرجال . ولم يأسفوا لأن زعيمهم أنقذ حياة هذا المخلوق المحيِّر .

وقت الظهر ظهرت أسراب كثيرة من الطيور تهاجر من مواطنها ، ولا شك أن كارثة قد حلت وراء الأفق فطردتها إلى أراض جديدة . وقت الغسق تبعتها الحيوانات ذات الفراء . فظهرت الفيلة والخيول والميغاسيروس وزفيرها يتصاعد من حولها ، والغزلان ذات الأظلاف الرقيقة ، ثم قفز أسد أصفر اللون تتبعه لبوءته أمام فصيلة من بنات آوى ، وتوقف معظمها أمام المستنقع لتروي ظمأها .

وتمنى نوح لو أن غزو الحيوانات يطرد الأقزام الحمر ، ولكن خاب رجاؤه ، فقد اضطرب الهواء وتصاعد الغبار في الجو ، وفي المساء أوقدت النيران وسمعت ضحكات وحشية ثم ساد السكون .

بعدئذٍ ظهرت بعض المخلوقات العجيبة تسبح على سطح الماء .ثم توجهت نحو الجزيرة المجاورة للجرف الغرانيتي ولا يدل على عبورها سوى حركة الماء ، وبروز بعض الرؤوس المدورة المغطاة بالطحالب ، وكان عددها خمسة أو

ستة . وكان نوح والرجل الذي بلا كتفين يرقبونهم بانتباه شديد .

وأخيراً وصلوا إلى الجزيرة واختبؤوا في شق بين الصخور ثم ارتفعت أصواتهم الصاخبة ، وميزها نوح لأنها كانت أصواتاً بشرية . وإذا هم بعض الأقزام الحمر الذين استغلوا هجرة الحيوانات ليحولوا أنظار آل أولمار الحذرة . ولكن كيف شقوا طريقهم ؟

وما لبث أن سمع حجراً ينطلق من الجزيرة ويصيب جذع الشجرة المحترق ، فتصاعد منها البخار ، ثم انطلق حجر ثان وسقط فيها ، وأدرك نوح خطتهم ، فهم يريدون إطفاء النار بأن يرموا فيها الحجارة مغلفة بالأعشاب الندية ، ليسهل عليهم مهاجمة المخيم ، فما العمل ؟ فلا يمكن مهاجمة الأقزام الحمر فوق الجزيرة إلا إذا ظهروا أو عرض آل أولمار أنفسهم للخطر .

وتوالت رشقات الحجارة الرطبة على النار والبخار يتصاعد منها ، وتقدم الأقزام من جهة البر وراء الشجيرات

التي يحملونها . وكأنما أصابت الحمى المحاربين الثلاثة والرجل بلا كتفين . بعد قليل انطفأ قسم كبير من النار ، وسأل نوح :

– هل نام وغاو جاهزان ؟

ولم ينتظر جوابهما بل أطلق صرخة الحرب . كانت صرخة غضب مسعور لم يجد فيها الشابان الثقة التي عهدوها في زعيمهم ، واستعدوا متحفزين للمعركة الفاصلة .

وفجأة انطلقت قهقهة من حنجرة نوح وعادت إليه ثقته ، وقال :

– منذ أربعة أيام والشجيرات التي يحتمي بها الأقزام الحمر تجف تحت الشمس .

فجذب من النار غصناً مشتعلاً ورماه بكل قوته على الشجيرات ، وانضم إليه المحاربان والرجل بلا كتفين ورموا الأغصان الملتهبة .

فوجئ العدو بهذا الدفاع الذي لم يتوقعوه فرموا بعض الرماح والحراب هنا وهناك ، ولكن النار اشتعلت من أطراف

الشجر ثم التهمتها ، وأطلق نوح صرخة الحرب مرة ثانية ، ولكنها صرخة أمل وانتصار ، وقال :

– لقد هزم آل أولمار مفترسي البشر فكيف لا يهزمون هؤلاء الحمر من أبناء آوى ؟

نهض الرجل بلا كتفين وزمجر وعيناه تلمعان التماع الفوسفور ومد ذراعه نحو الغرب .

التفت نوح ليرى على الهضاب البعيدة ناراً مشتعلة شبيهة بالهلال الوليد .

4 – معركة بين أشجار الصفصاف

من صباح الغد ظهر الأقزام الحمر وهم يستعدون للقتال . فكان الحقد يلمع في عيونهم وأسنانهم تصطك من الحقد والقهر ، ثم جمعوا الكثير من الشجيرات عوضاً عن تلك التي احترقت وتجمعوا وراءها بعد أن أغرقوها بالماء لئلا تصيبها النار .

كانت الشمس في وسط السماء حينما نهض الرجل بلا كتفين وأطلق صرخة عالية وحرك ذراعيه إلى أعلى ، فجاوبته صرخة مماثلة صادرة من المستنقع ، ولاحظ آل أولمار على مسافة بعيدة من الضفة المقابلة رجلاً يشبه الرجل بلا كتفين ، وهو يحمل سلاحاً لم يروه من قبل . وقد رآه الأقزام الحمر أيضاً ، فانطلقت مجموعة منهم لمطاردته ، فاختفى الرجل وراء القصب .

وتتابعت الأحداث بشكل عجيب ، تقدمت عدة مجموعات من الأقزام الحمر ناحية المستنقع وظهر أمامها

حوالي الثلاثين من رجال ونساء بلا أكتاف ، واشتبكوا معهم ، نشبت معركة هائلة بين الطرفين ، وحين حوصر الرجال بلا أكتاف كانوا يطلقون سهامهم بواسطة آلة غريبة لم يرها آل أولمار من قبل .

وهي عصا معكوفة مصنوعة من الخشب أو القرن ، تنتهي بقوس يشدونه إلى الخلف ثم يطلقون منه السهام ، فيكون مداها أبعد من رمية اليد .

في المرحلة الأولى انهزم الأقزام الحمر ، وتساقطوا على الأرض . وتتابع وصول الإمدادات إلى الرجال بلا أكتاف ، وتدفقوا من كل ناحية وهم يزمجرون ، واختلط المقاتلون من الجهتين ، والحقد يلمع في عيونهم كأن بينهم ثارات قديمة .

لاحظ نوح أن معسكر الأعداء قد نقص عدد أفراده .

وانتظر اللحظة المناسبة فأصدر الأمر بالهجوم ، فانطلقوا من مخبئهم وانهمرت عليهم الحراب ، ولكن بعد أن اجتازوا مخيم الأقزام الحمر .

تحت ظلال الصفصاف نشبت معركة بالأيدي وبالحراب . واختبأ بعض المحاربين من الرجال بلا أكتاف وهم يحملون هذه الأقواس ويرمون بها سهامهم ، ولكن الأقزام أكثر منهم عدداً ، وبدا انتصارهم مؤكداً ، حينئذٍ تدخل نوح ونام وغاو بسرعة خاطفة وصوته يزأر زئير الأسد ، وهجم كالصخرة في وسط الأعداء ، ودارت الهراوة على الرؤوس فكسرها ، وأصابت الصدور فحطمتها ، ولعل الأقزام الحمر قد قدروا خطر نوح وهراوته ، ولكنهم لم يتصوروها على هذا القدر من الدمار .

تأكدت هزيمة الأقزام الحمر إذا لم يشتبكوا مع أعدائهم فرداً لفرد ، ولكنهم لم يلاقوا سوى الفراغ ، إذ أن الرجال بلا أكتاف كانوا يصطادونهم بأقواسهم من بعيد .

وأما آل أولمار فكانوا يجهزون على المنفردين والجرحى .

تفرق الأقزام الحمر في كل اتجاه لمقابلة الرجال بلا أكتاف ، فكانت رماحهم تفتك بهم فتكاً ، ونظر نوح إلى أرض المعركة فرأى أن زعيم الأقزام الحمر رجل أبيض الشعر

يحيط به حوالي العشرين من أتباعه ويدافعون عنه برماحهم المشرعة ، فعزم على قتله ، وشق طريقه وسط المحاربين وهراوته الضخمة تهشم الرؤوس ، وما زال يقاتل حتى انكشف المحاربون من حول زعيمهم ، وهوت على رأسه هراوة أسقطته أرضاً وقتلته ، وجرى نام وغاو لنجدة نوح وانتشر الذعر بين الأقزام الحمر بعد مقتل زعيمهم ، فهربوا دون أن ينظروا وراءهم ، متوجهين إلى ديارهم في البحيرات والأنهار وإلى عشائرهم التي يستمدون منها العون .

5 – المحتضرون

كان على الأرض ثلاثون رجلاً وعشر نساء يحتضرون ، ولم يجد الرجال بلا أكتاف بداً من الإجهاز عليهم ، فهذا هو قانون الغابة ، وقد عارض نوح هذا القانون أحياناً ، ولكنه اضطر إلى اتباعه مع هؤلاء الأقزام الحمر الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة .

انصرف الرجال بلا أكتاف لمعالجة جرحاهم ، وكانوا يؤدون ذلك بطريقة دقيقة وأكثر إتقاناً مما يفعله آل أولمار .

وأدرك نوح أنهم يعرفون أشياء كثيرة لا تعرفها قبيلته ، ولكن أجسامهم النحيلة لا تستجيب لرغباتهم العالية .

ولاحظ نوح أن نساءهم أنشط منهم وأكثر مهارة .

وعرف بعد حين من الزمن أن إحدى النساء هي زعيمة القبيلة ، وكانت لنسائهم النظرات الهائلة نفسها والوجوه الحزينة ذاتها ، ولم تكن شعورهن أكثر من شعور الرجال ،

فهي شعيرات تتوزع على رؤوسهن ، وأين من ذلك الجدائل الكثيفة التي تنسدل على كتفي جملا !

اقتربت عدة نساء من نوح يتفحصن جراحه ، فبدأن بتنظيفها من الدم المتخثر ببضع أوراق من شجر طيب الرائحة ، ثم وضعن عليها معجوناً وربطنها بضمادة ، وكانت تلك إشارة إلى التحالف الدائم بينهم .

وتأكد نوح أن الرجال بلا أكتاف أقل شراسة من رفيقيه ، ومن مفترسي البشر ومن الأقزام الحمر ، ولم يكن مخطئاً في حكمه هذا .

بعد أن ضمد نوح جراحه ، رجع إلى الجرف الغرانيتي ليأخذ أقفاص النار ، ووجدها سليمة وألسنتها الصغيرة ما تزال مشتعلة ، فأحس بأن انتصاره قد اكتمل .

كانوا يراقبونه بفضول وهو يغذي نيرانه الصغيرة وشرح لهم بحركاته كيف أن النار سُرِقَتْ من قبيلته وأنه خرج مع صاحبيه لاستردادها ، ولكن لم يبد عليهم أنهم فهموا كلامه ، وظن نوح أنهم من أولئك الأقوام الذي حدثه عنهم شيخ

القبيلة غوان ، الأحط شأناً من الذئاب ، لا يعرفون النار ولا يتدفؤون بها ، ولا يشوون عليها طرائدهم ، فأشفق عليهم وبدأ يشرح لهم كيف يغذون النار حتى تكبر ويرتفع لهيبها ، ولكنه لاحظ امرأة بين أشجار الصفصاف تضرب حجراً بحجر ، ثم تنقدح منها شرارات تصيب بعض العشب اليابس ، فتنفخ فيه حتى يلتهب وتغذيه بالأغصان .

وقف ابن الفهد جامداً ، وبعد تأمل طويل قال لنفسه :

– الرجال بلا أكتاف يخبئون النار في الحجارة .

فاقترب منها ليرى ما تفعله فابتعدت عنه بحركة غريزية ، ثم تذكرت أنه قد أنقذ أهلها فمدت له يدها بالحجارة فتفحصها ، فلم يجد فيها شرخاً ، فكانت دهشته عظيمة .

وتلمسها فوجدها باردة فتساءل بحيرة :

– كيف دخلت النار إلى الحجارة وكيف لم تدفئها ؟

وردها إلى المرأة وقد سيطر عليه ذلك الجزع والحذر اللذان يسيطران على الإنسان أمام الأشياء العجيبة .

6 – العبور ببلاد المياه

كان اسم القبيلة بلا أكتاف هو (واه) ، فمضوا مع آل أولمار ليعبروا بلاد المياه . وكانت المستنقعات منتشرة على مسافات واسعة ، تعمرها الضفادع والسراطين وأنواع مختلفة من الأسماك . وقد تكون مياهها عميقة حيناً ، وسطحية أحياناً ، بحيث تشقها دروب رملية أو تغوص الأقدام في الوحول . وقد عرفت قبيلة (الواه) أن هدف نوح هو الوصول إلى طريق الشمال الغربي ، فسعوا إلى اختصار رحلته ، والسير به إلى حدود الأرض الرطبة .

وتبين له أنهم أذكياء مهرة ، لا تنقصهم الوسائل الجديدة التي يخترعونها في مواجهة الطبيعة ، فيصنعون طوقاً من جذوع الأشجار ، يجتازون فوقه المستنقعات العميقة ، أو يربطون حبالاً تصل بين الشاطئين لئلا تنـــزلق بهم الوحول ، وهم سباحون مهرة ، ولكنهم يخافون نوعاً معيناً من الأعشاب ويتصرفون غير واثقين من حركتهم ، كأنهم مخلوقات تقاوم

النعاس أو ناهضون من حلم ثقيل . ولكنهم لا يخطئون أبداً . كان الغذاء وفيراً لديهم . وتعرف قبيلة الواه أنواعاً كثيرة من الجذور تصلح طعاماً لذيذاً لهم .

ويمتازون بمفاجأة الأسماك بضربة واحدة من حرابهم ، ويستدرجونها ليلاً بمشاعلهم ، ويسوقونها إلى برك مغلقة .

كانت قبيلة الواه تستمتع بالسمر ليلاً على ضوء المشاعل ويجلسون على الأرض متراصين كأنهم كتلة واحدة ، ولا يحسون بتفردهم بل بروح جماعية تشملهم كلهم . وهذا خلافاً عن نوح الذي لا يحس بالمتعة إلا إذا انفرد بنفسه واستسلم لتأملاته . ويغنون أناشيد رتيبة لا يتغير لحنها ، لعلها تروي أمجاد جنسهم وأساطيره .

ولم يكن نوح يهتم بذلك كله ، بل يحس بنوع من التقزز لرؤيتهم ، وصرف انتباهه إلى طريقتهم في صيد الأسماك ومطاردة الوحوش ومعرفة الاتجاهات . وخاصة إلى طريقتهم في رمي السهام بأقواسهم الجديدة ، واستخراج النار من الحجارة .

لم تُخْفِ عليه قبيلة الواه أي سر من أسرارها . إذ كان حليفهم الذي أنقذهم من الموت ، وسرعان ما تعلم الرمي بالقوس ، وكيف يصلحه ، وإذا فقده كيف يصنع آخر سواه . لكن إشعال النار بقي لغزاً محيراً أمام ذكائه الفطري . وكان يراقب تلك الشرارات تنطلق من الحجارة ولا يفهم الرابطة بينها وبين التهاب النار .

إنها قضية غامضة عامرة بالمتناقضات ، وكان لا بد له من وسيلة للتفاهم مع قبيلة الواه ، فتعلم بعض ألفاظهم فتبين له أن النار ليست محبوسة في الحجارة ، بل هي كامنة فيها ، وتنبثق منها إذا احتك حجران ، وانطلقت منهما شرارات تشعل العشب اليابس ، ولكنها شرارات ضعيفة لا تستطيع القبض على فريستها إلا بعد جهد جهيد .

وتعلم كذلك أن الاحتكاك لا يكون إلا بين حجرين مختلفين يلتقطهما من الأرض ، وأدرك أن النار كامنة في التراب ذاته .

جرب نوح بنفسه استخلاص النار من حجرين قدح أحدهما بالآخر ففشل عدة مرات ، ولكنه استطاع أن يشعل ناراً صغيرة .

توقف الركب أمام أرض منبسطة من الرمال والحصى .

وحين أقبل الليل ارتفع في السكون زئير أسد ، فأشعلت قبيلة الواه نارين كبيرتين ، وأراد نوح أن يشعل ناراً خاصة به ، فأخذ حجرين وقدحهما طويلاً فأطلقا شرارات لم تصب العشب اليابس ولم تشعله ، فداخله الشك وظن أن قبيلة الواه تخفي عنه سر النار . واستمر يقدح الحجرين وصدره عامر بالأمل ، وما لبثت الشرارات أن أصابت العشب وظهر بصيص نار ضئيل فنفخ فيه نوح بكل قوته فالتهب ، فغذاه حتى صار ناراً هائلة تصطاد ما تصادفه من فرائس .

وقف نوح جامداً يتنفس الهواء بصعوبة ، وعيناه محمرتان واسعتان ، واجتاحه فرح لم يعرفه حين قتل النمرة ، أو سرق النار من الأقزام أو حين تحالف مع الماموث ، أو حين انتصر

على الأقزام الحمر . وأدرك أن لا أحد قادر على أن يقتل النار لدى قومه .

7 - الرجال ذوو الشعر الأزرق

ما زالوا يسيرون حتى وصلوا إلى بلاد تنتشر فيها مساحات من الغابات الهائلة وكأن أشجارها من الصنوبر والسدر جدران عالية ، متشابكة الأغصان ، لا يمكن دخولها إلا بضربات الفؤوس الحجرية .

علم نوح من زعيمة الواه أنهم لا يستطيعون متابعة الرحلة معهم حينما يجتازون الغابة لأنهم يجهلون ما وراءها .

ذات يوم أشارت الزعيمة بيدها إلى شيء يتحرك بين أغصان شجرة التين ، فنظر نوح فرأى رجلاً أزرق اللون ثم اختفى ، فأحس بالرعب والتقزز إذ تذكر الأقزام الحمر ، وتوقفت القبيلة عن المسير واجتمع بعضهم إلى بعض ، وتكلم أكبر رجال القبيلة سناً ، فقال : إن الرجال الزرق أقوياء ، شرسون سريعو الغضب ، ولا ينبغي السير في طريق يسلكونها ، ولا العبور داخل مخيماتهم ، وأضاف أنهم لا يحبون الصراخ ولا إشارات الأيدي وختم قوله :

– إن أجدادنا قد عاشوا مع الرجال الزرق بسلام ، ولم ينشب بينهم قتال . فقد تركوا لهم طريق الغابة ، وتخلوا هم لقبيلة الواه عن السهول والمياه .

رفعت الزعيمة صولجانها وأشارت إلى طريق جديدة سلكتها القبيلة ، وما زالوا يمشون حتى وصلوا إلى منطقة جرداء ، نزلت عليها صاعقة أحرقت أشجارها .

سار الجميع بهدوء ، وفجأة لمح نوح شخصاً يتحرك بين الأغصان ورأى مجموعة أخرى تراقبهم . فلم يدر أهم من جنس البشر أم الحيوان ؟ كانوا جاثمين على أرجلهم الخلفية الممتدة على الأرض وأيديهم مرفوعة أمامهم ، ولهم وجوه ضخمة كالضباع ، وعيون مدورة لامعة تقدح شرراً ، ورؤوس طويلة وصدور رحبة ، وأما أجسادهم فيغطيها الشعر الأزرق المائل إلى الحمرة ، فالجزء الأعلى من أجسامهم شبيه بأجسام البشر ، وأما الجزء الأسفل فيذكرك بالحيوانات .

وتجرأت هذه المخلوقات فخرجت من بين الأشجار تراقبهم والإناث منها تحمل صغارها ، وكان أحدها ضخم

الجثة يداه واسعتان مثل المجاذيف ، وصدره أكبر مرتين من صدر نوح . ويستطيع أن يطرح الثور بضربة واحدة ، ويخنق النمر تحت إبطه . ولا يحمل سلاحاً ولكن يتبعه اثنان أو ثلاثة أقل منه حجماً يحملون أغصاناً كبيرة يجرونها وراءهم على الأرض .

تقدم العملاق نحو قبيلة الواه وآل أولمار ، على حين بقي الآخرون يزمجرون بعيداً ، وبدأ يضرب صدره ويكشر عن أسنانه البيضاء اللامعة وشفتاه تقطران بالماء .

فأشارت الزعيمة إلى أبناء الواه فتراجعوا عنه ولم يقوموا بأي حركة كما علمهم أجدادهم ، ولم ينطقوا بحرف . وقلدهم نوح معتمداً على تجربتهم ، ولكن نام وغاو اللذين تقدما على الجماعة ظلا منعزلين .

فقطع الرجال الزرق عليهما طريق العودة ، فرمى نام نفسه في الغابة وحاول أن يجري في الأرض المكشوفة ، ولكن إحدى الإناث سدت عليه سبيل الفرار فتعثر ، فسارع إليه رجلان من الزرق وأمسكا به ثم سلماه إلى العملاق .

لم يكن نام يمد يده إلى سلاحه حتى قبض العملاق على كتفه ، فكاد ينتزعها وكأنه غزالة صغيرة بين براثن النمر .

وكانت المسافة بعيدة بينه وبين نوح فلم يستطع الوصول إليه وشلت أطرافه ، وتوسعت عيناه من الألم .

ولم يطق نوح صبراً على رؤية صاحبه في هذه الحالة فتقدم ، ولكن الزعيمة أوقفته قائلة :

– لا تضرب .

وأفهمته أنه إذا تحرك فإن صديقه مقتول لا محالة ، وأصبح حائراً بين الخوف على صديقه والقهر من عجزه على مد يد المساعدة إليه . فزفر زفرة ألم وتابع ما يحدث أمامه . فرفع العملاق نام إلى مستوى عينيه وهو يتأمله وهمَّ بأن يضرب جذع شجرة ، وفجأة توقفت حركته فلم يلاحظ أي مقاومة صدرت عن نام ، فارتسمت على ملامحه عاطفة الحنان وغامت عيناه بالرحمة ، فوضع نام على الأرض .

أصبح الشاب طليقاً فجرى إلى نوح ووقفا يتأملان الرجال الزرق يظهرون ثم يختفون وراء الأشجار ، وكم تمنى

نام لو قتل بعضاً منهم . ولكن نوح لم يشعر نحوهم بالكراهية بل أعجبته قوهم الشبيهة بقوة دب .

وفكر أنهم لو شاؤوا لأبادوا قبيلة الواه والأقزام الحمر ، ومفترسي البشر وآل أولمار جميعاً .

8 - الدب العملاق في المضيق

مر زمن طويل بعد أن غادر نوح قبيلة الواه واجتاز غابة الرجال الزرق .

اقترب الشتاء وغدت الحياة قاسية ، والعشب نادراً .

وأما آكلو النباتات فكانوا ينبشون الأرض بحثاً عن الجذور والحبوب ، والقوارض دعمت جحورها لئلا تدركها الحيوانات اللاحمة ، أما الحيوانات اللاحمة ذاتها فكانت تتجول في الأراضي الشاسعة بحثاً عن فريسة لها بين الكهوف ، وفي أخاديد الصخور .

لم يقاس نوح ونام وغاو من هذا الفصل فقد روضت التجارب حواسهم وأرهفت غريزتهم ، حتى أصبحوا لا يخشون الجبال والبحيرات والمياه الراكدة ، ولا الغابات لأنهم أصبحوا قريبين من بلاد آل أولمار ، وهم يأملون الوصول إليها قبل نصف قمر .

ذات يوم وصلوا منطقة في أعالي الهضاب . واختار نوح بين عدة طرق ، مضيقاً يعرفه منذ كان في عمر غاو إذ كان يصيد مع عشيرته .

واجتازه آل أولمار دون حادث حتى وصلوا إلى ثلثيه ، وتوقفوا زمن الظهيرة لتناول طعامهم ، في مفترق الطرق التي تتشعب إلى المغائر والكهوف . وكانوا يسمعون خرير المياه الجوفية وانصبابها في حفرة هائلة . بعد أن تناول نوح طعامه توجه إلى إحدى المغائر يتفرج عليها ، وتذكر أن فاوهم قد قادهم إلى هذه المغارة ، وأراهم حفرة فيها تؤدي إلى طريق مختصرة حتى السهول .

مضى إلى أقصى المغارة ودخل الحفرة ومشىَ حتى ظهر له نور يدل على مخرجها ، وحين رجع قال له نام :

– الدب العملاق في المضيق .

وما كاد يكمل جملته حتى سمع زئيراً يتردد كالرعد ، فجروا نحو المغارة واختبؤوا فيها وقلوبهم ترتعد من الخوف . بعد قليل ظهر حيوانان هائلان .

الدب الذكر يغطيه فرو كثيف بلون السنديان يحميه من الشتاء المقبل ومن خشونة الصخور ، وأشواك النباتات . حجمه أكبر من الثور وأقوى بنية ، عريض الجبهة كأنها صخرة وشدقه واسع ، وأسنانه بارزة . وأما أنثاه فجبهتها مسطحة وحجمها أصغر . وكان مظهرها شبيهاً بالرجال الزرق .

وهمس نوح :

– نعم إنهما الدبان العملاقان .

لا يخاف الدب العملاق أحداً ، ولا يكون خطراً إلا إذا اشتد هياجه ، أو طال جوعه ، ونادراً ما يأكل اللحوم . وحرك الدب رأسه وزمجر عالياً فقال نام :

– إنه جريح .

كان الدم يتدفق بين فروه ، وخاف الرجال أن يكون أحد من البشر أصابه فيعمد حينئذٍ للانتقام منهم ، والدب حقود لا ينسى ثأره ، ولا يؤثر في جلده السميك ضرب

الحراب ولا طعن الرماح ، ويقتل الإنسان بضربة واحدة من مخلبه ، وسأل نوح : من أين أقبلا ؟

قال غاو وأشار إلى بعض أشجار الصنوبر :

– من بين الأشجار .

وقد نزل الدب من ناحية اليسار وانحدرت أنثاه من ناحية اليمين فأغلقا المضيق إما لذكائهما أو لمصادفة بحتة .

ورآهم الدب فهجم فاغراً شدقه فجروا أمامه وقد أيقنوا بالموت .

أمسك نوح بقفص النار ورماه في وجه الدب فأصاب جفنه وتوقف قليلاً يمسح بكفه النار عن وجهه ثم ازداد هياجاً ، وانقض عليهم فرمى نوح القفص الثاني فأصاب أنفه ، وحين كان يحرك يده أمام أنفه هربوا مبتعدين عنه ولكن إلى أين ؟

لم يكن أمامهم سوى مدخل المغارة فاجتازوا إليها فتبعهم الدب بخطوات ثقيلة ، ارتجت لها جنبات المكان .

وقد اشتد به الغضب وصعد الدم إلى رأسه فلم يعد يبالي بالمخاطر وأطلق زمجرة عالية .

حاول نوح أن يرتد ليصده عنهم بسلاحه ، ولكن نام هتف له أن أسرع ، فدخلوا شقاً وراء الصخور يتسع لدخولهم ، هجم الدب وراءهم فعلق رأسه وكتفاه بين صخرتين . فهل يكسر هذا الصخر الأقوى من مائة ماموث والأقدم من حياة ألف جيل ؟

وصرخ نوح :

– نوح الآن أقوى من الدب الكبير ، لأن لديه هراوة وفأساً ورمحاً ، ويستطيع أن يضرب الدب ولا يرد له ضرباته .

ورفع هراوته إلى أعلى . كان الدب قد وقع عدة مرات منذ صغره في فخ من الصخور ، وعلق بين شقوقها فجذب رأسه قبل أن يضربه الرجل ، واختفى في جنبات المغارة ، وزمجر الدب ولم يستفد درساً من هذه الحادثة ، لأن الجراح لم تزده ثقافة وحكمة .

وسمعت الدبة صوته فعرفت أنه قد أوقع نفسه بغبائه في شرك جديد .

9 — الصخرة

تردد نوح في ضرب الدب والحقد يملأ قلبه . ولكنه فكر بأن وطنه قريب منه ولا فائدة من هدر الوقت . فخفض هراوته ومشى نحو النور في عمق المغارة . وأخيراً توسع المدخل وهتف آل أولمار فرحين إذ رأوا غيوم الخريف تتدحرج كالخراف على امتداد السماء . والأرض شاسعة أمامهم .

كل ما يرونه أليف لديهم . محبب إلى قلوبهم . وهي مدارج صباهم التي لعبوا في غاباتها ، وصعدوا هضابها ، وسبحوا في بحيراتها . وكم أقاموا على شاطئ هذا النهر أو تدحرجوا بجانب تلك الصخور ! وما تزال أمامهم مسيرة يومين ويصلون إلى المستنقع الكبير الذي يسكنه آل أولمار بعد رحلة صيد .

ضحك نام ضحكة طفل صغير . وبسط غاو ذراعيه فرحاً ، ووقف نوح جامداً كأنما هو عدد من الأشخاص تتنازعه عواطف شتى ثم قال :

– لقد عدنا إلى القبيلة .

وهاهم يحسون بوجودها في رائحة الخريف المقبل .

مشوا حتى الغروب . وبحث نوح عن منعطف النهر ليقيموا فيه ، واصطبغ الأفق بلون أحمر ، وارتفع عواء الذئاب ونباح الكلاب فعزموا على الرحيل . وتنقل بهم نوح وكأنه يبحث عن شيء يعرفه .

ثم وقف أمام صخرة مكعبة ترتفع عن خمس قامات ولا يُصعد إليها إلا عن طريق ضيقة ، وقال :

– نوح ونام وغاو سيضحكون من الكلاب .

وارتقاها بسرعة فهو يعرفها منذ فصول عديدة .

كانت صخرة تتسع لثلاثين رجلاً مغطاة بالأعشاب ، وتنمو فيها شجرة صنوبر .

هناك في الأفق الرمادي اشتبكت الذئاب والكلاب . وتعالت أصواتها تشق سكون الظلام . وآل أولمار في مأمن من شرها جميعاً .

أشعل الرجال ناراً كبيرة في الدرب المتعرجة المؤدية إلى الصخرة ، وانعكس نورها على المياه القريبة ، وتراقصت عليها ظلال الأشجار . واتضحت للرجال الرؤية على مرمى عشرين رمحاً .

كانت الحيوانات تختبئ خائفة من اللهيب . وهتفت بومة معلنة عن غضبها ، وغادر سرب من الأوز مكانه إلى الظلام . وكشف لهيب النار خنـــزيراً برياً تردد قليلاً وهو يزمجر ثم تابع طريقه .

لا يجهل الرجال قوة هذه الحيوانات المنتشرة في الغابة ، لكنهم جلسوا يأكلون هانئين اللحم المشوي والحرارة تلمس وجوههم وقلوبهم . فالقبيلة قريبة منهم .

بعد يومين سيصلون إلى مياه المستنقع . ستستقبل القبيلة نام وغاو استقبال الأبطال . وتعترف بشجاعتهما ودهائهما

وصبرهما على المشاق ، ويهابهما الجميع . ستكون جملا من نصيب نوح ويحكم بعد فاوهم .

كان الدم يغلي في عروقهما أملاً . ولئن كان تفكيرهما محدوداً فإن غريزهما واسعة ، عامرة بالصور والأحاسيس . فهما شباب عالم لا عودةَ له . حيث كل شيء واسع ، وكل شيء جديد .

وهم لا يحسون بنهاية وجودهم . فالموت أسطورة مفزعة لا حقيقة واقعة . وهم يخافونه فجأة في الأوقات الصعبة ثم يبتعد عنهم ، وينمحي ، ويضيع في عمق حياهم اليومية .

ولئن كانت المصائب المتربصة بهم كثيرة من حيوان ، وجوع ، وبرد فهم لا يخافونها . وكل ما يبحثون عنه المأوى والطعام . فحياهم نضرة مثل مياه النهر .

انطلقت زمجرة شقت الظلمات . فهرب الخنــزير ناجياً بنفسه ، وتفرقت حيوانات أخرى باحثة عن مأوى . وتراءى من بعيد شبح حيوان هائل . وأبصر نوح الأسد العملاق مرة ثانية ، وتقدم الحيوان الضخم قلقاً . فهو يعرف سرعة الحيوان

الذي يهرب منه وحيله وحذره ،وكل قدراته . فقد عاش في هذه الأرض منذ دهور طويلة . وكاد جنسه ينقرض منها ، إذ ندرت الفرائس ، وكثر الصيادون ، واجتاحت المياه الغابات فأنقصت من مجال صيده .

على الرغم من ارتفاع الصخرة وصعوبة الارتقاء إليها . والنار التي تحمي مدخلها ، إلا أن نوح أحس بالألم في أحشائه فتناول هراوته ورمحه وكان نام وغاو جاهزين للقتال .

ورقد الثلاثة على سطح الصخرة وخفضوا رؤوسهم .

توقف الأسد – النمر واستجمع عضلاته وتأمل هذا الضياء الذي يزعج الظلام كأنه الفجر . ولكنه ليس الفجر ولا الصاعقة التي تحرق الأشجار . وتذكر في طفولته ناراً أشعلها البشر فأحرقت مخالبه . فارتعد وزمجر . ثم ضرب الأرض بذيله فأثار الغبار وبعض الأوراق اليابسة . وبخطوات قصيرة هادئة توجه نحو النهر ، وقد زكمت أنفه رائحة اللحم المشوي والدخان ولكنه يشم رائحة الإنسان . ولما لم يحس بوجود فريسة فلم يستعد للقتال وتثاءب معبراً عن يأسه .

رآه نوح يبتعد في الظلام فصاح بأصحابه ضاحكاً :

– لا يوجد حيوان يستطيع محاربتنا .

جلس نام وظهره إلى النار يتأمل الجانب الآخر من النهر . ووقع بصره على شيء يتحرك على سطح المياه ثم ينـــزلق بين الأشجار والصفصاف . فقال مشيراً بيده :

– يا ابن الفهد . الرجال قادمون .

فكأنما سقط ثقل على صدره . وجمع الثلاثة حواسهم ، ولكن الضفاف هادئة ولم يسمعوا سوى خرير الماء ، وبعض الحيوان ، وظلال الأشجار . وتساءل نوح :

– هل أخطأ نام ؟

وأجاب الشاب وهو واثق مما رأى :

– لم يخطئ نام .. رأى جسم رجلين بين أغصان الصفصاف .

لم يشك الزعيم في صدق قوله . وتردد قلبه بين الجزع والأمل .

وقال بصوت خفيض :

– هذه بلاد أولمار ، وما رأيت إما صيادين أو طليعة أرسلها فاوهم .

فنهض وبسط قامته إذ لا فائدة من الاختباء . وسواء كانوا أصدقاء أم أعداء فإنهم يعرفون دلالة النار . وقال بصوت هادئ :

– أنا نوح بن الفهد الذي اقتنص النار من أجل آل أولمار .

اقتربوا يا مبعوثي فاوهم :

وقف الثلاثة أمام النار وكأنهم في وضح النهار وأطلقوا صرخات نداء آل أولمار .

الانتظار يقرص قلوبهم ، وهو عامر بكل مخيف . وزمجر نوح :

– إنهم أعداء .

في أسفل النهر لمح شبحاً ضخماً ، شبح رجل ظهر ثم اختفى سريعاً . واخترقه اليقين مثل نصل الرمح . فالذين اختبؤوا هم من آل أولمار . وكان نوح يود لو كانوا من

مفترسي البشر ،أو الأقزام الحمر . لأنه تعرف على شخص
آغو ذي الشعر الكثيف .

10 - آغو ذو الشعر الكثيف

استعاد نوح مشهد آغو وأخويه وقد وقفوا أمام فاوهم يعدونه بأن يجلبوا النار . وكان الخطر يتّقد في عيونهم المدورة ، والشراسة ترافق حركات أيديهم . وأصغت العشيرة مرعوبة لأنهم عارضوا فاوهم واعتبروا أنفسهم أنداداً له . وهم يعادلون عشرة محاربين بصدورهم المشعرة كصدر الدب الرمادي ، وأيديهم الخشنة الثقيلة ، وشراستهم في القتال ودهائهم وتعودهم على القتال مجتمعين .

وحين فكر بكل أولئك الذين قتلوا أو كسروا أعضاءهم أحس نوح بحقد شديد .

وكيف يهزمهم ؟ أم هو ابن الفهد فيعتبر نفسه نداً لآغو وقد عززت الانتصارات ثقته في نفسه ، ولكن نام وغاو سيكونان مثل الفهدين أمام الأسدين ؟ .

وتصارعت الأفكار في رأسه ثم عزم على أمر فقال لصاحبيه :

اذهبا أولاً .. واحملا سلاحكما .. وسأحمل النار وحدي .

وعلى الرغم من حصوله على الحجارة العجيبة ، إلا أنه لم يشأ أن يتخلى عن شعلة النار .

كان يجب على نام وغاو أن يسبقا آغو وأخويه إلى القبيلة فحملا سلاحهما وانحدرا عن الصخرة الكبيرة ، ولكن الظلام والأخاديد منعتهما من الإسراع ، فالتصقا بجدار الصخرة لئلا يتعثرا ، وانتظرا أن يرمي إليهما نوح بالهراوتين من أعلى .

حينئذٍ خفق قلب نوح إذ انطلقت من جانب النهر صرخة طائر يعرف مغزاها ، إنها النداء بين آغو وأخويه . وما لبث أن ظهر آغو نفسه بين الأشجار يجري بسرعة البرق ومعه أخواه .

لم يرم نوح إلى صاحبيه الهراوتين لئلا تعيقهما عن الجري ، وكان نام أنشط وأسرع من آغو وأخويه ، فهتف به نوح :

التحق بالقبيلة وأخبرهم أننا ننتظرهم ومعنا النار هنا .

فأطاعه نام ، وأسرع ليوسع المسافة بينه وبين آغو وأخويه ، ولكن رماه أحدهم بحربة أصابت ذراعه فرجع إلى الصخرة يتسلقها والدم ينـــزف منه .

سارع إليه أحد الأخوين ليجهز عليه ، وكان نوح يرقب ما يحدث من أعلى فأمسك حجراً وضرب به جبين شقيق آغو ، وقبل أن يعالجه بحجر آخر هرب إلى الأدغال الكثيفة وهو يصرخ كالمسعور .

وساد صمت عميق ، وتوجه آغو إلى شقيقه يفحص جرحه ، وساعد غاو نام على الصعود إلى الصخرة . ووقف نوح بين ضوء القمر ولهيب النار ، رافعاً يده بحجر ينتظر به المهاجمين ، وهتف منادياً :

أليس أبناء الثيران من عشيرة نوح ونام وغاو ؟ فلماذا يهاجموهم وكأنهم أعداء ؟

ونهض آغو ، وصرخ صرخة الحرب وقال :

– آغو يعاملك معاملة الصديق إذا أعطيته نصيبه من النار ، ومعاملة الحيوان إذا رفضت ذلك !

فأجابه نوح :

– لقد جلبت النار من مفترسي البشر وسوف أتقاسمها معك حين نصل إلى العشيرة .

– نريد النار الآن .. ويحصل آغو على جملا ويأخذ نوح ضعف نصيبه من الصيد والغنائم .

فارتعد نوح غضباً :

– ولماذا يأخذ آغو جملا ؟ وهو لم يعرف كيف يحصل على النار ؟

ستسخر العشيرة منه .

– آغو أقوى من نوح ، سيشق بطونكم بحربته ويكسر عظامكم بهراوته .

– نوح قتل الدب الرمادي والنمرة ، وصرع عشرة من مفترسي البشر وعشرين قزماً أحمر ، نوح سيقتل آغو .

– فلينـــزل نوح إلى السهل .

– لو جاء آغو وحده لقاتله نوح .

وترددت ضحكات آغو كأنها زئير حيوان .

- لن يصل أحد منكم إلى المستنقع .

وسكت الاثنان ، كان نوح يعلم أن صاحبيه لا يقدران على مواجهة أبناء الثيران ، ولكن أحد الإخوة قد خرج من المعركة ، كما أن نام جريح لا يستطيع القتال .

الدم ينـــزف من ذراع نام ، فرش عليها نوح رماد الموقد وغطاها بالعشب ، وسأل نفسه كيف يقاتلهم ؟ فلا أمل في مفاجأة آغو وأخويه ومخادعتهم ، فحواسهم مرهفة وقواهم لا تعرف التعب ، ولكنهم أقل سرعة من صاحبيه ، ولا يضارعهما إلا نوح ابن الفهد .

ورسم في ذهنه خطة لم يتصورها كاملة ، لأن عقله البدائي لا يحيط إلا بالأشياء متفرقة . فوقف ينكت الأرض بقدمه ، كما فعل الثور الذي يستعد للقتال .

عليه أولاً أن يطفئ النار حتى إذا خسر المعركة لم يستفد آغو منها ، فيحصل على جملا وعلى المكافأة ، فرمى في النهر الجزع الكبير الملتهب .

وأطفأ ما تبقى بالتراب والحجارة ، واحتفظ بأحد الأقفاص حيث يشتعل لهيب ضئيل ، وطلب من غاو أن يسبقهما في الهبوط من الصخرة ، لئلا يفاجئهم أبناء الثور . وحين وصلوا على ارتفاع قامتين من الأرض توقفوا إذ رأوا أعداءهم قد تأهبوا لقتالهم وأسلحتهم بأيديهم : آغو في مواجهة الصخرة وأخوه الجريح مستند إلى شجرة وقد أمسك رمحاً ، أما أخوه الثاني ويدعى روخ ذا الذراعين لقوة يده ، فكان يدور حولهما ، وقف نوح يهُز رمحه مهدداً وانتهز فرصة اقتراب روخ ليرشقه به فلم يصبه ، ثم رمى حجراً فسقط أقرب منه .

صرخ روخ هازئاً :

– ابن الفهد غبي أعمى .

ورفع يده الممسكة بهراوته فأخذ نوح قوسه الذي جهزه بسهم صغير وتعلم استخدامه لدى قبيلة الواه ، ظنها روخ حركة تهديد إذ لم يبصر رمحاً ولا حربة ، فتابع تقدمه غير عابئ بنوح ولم يلمح السهم منطلقاً إليه إلا بعد فوات الأوان .

فانغرس في كتفه الأيمن وسقطت الهراوة من يده وارتفع صراخه يجأر بالألم .

سيطر ذعر شديد على آغو وأخويه ، إذ أن مسافة الرمي تتجاوز بكثير ما يقدر عليه المحاربون الأشداء ، وأحسوا بأن نوح يملك سلاحاً عجيباً وحيلة لا يعرفونها فتراجعوا .

ولم يقدر روخ على إمساك هراوته فتناولها بيده اليسرى ، وانتهز نوح هذه الفرصة ليساعد نام على الهبوط من الصخرة ، أصبح الرجال الستة الآن في السهل والحقد يملأ قلوبهم جميعاً .

انطلق ابن الفهد إلى ناحية اليسار ، حيث الممر أعرض وأكثر أمناً ، وقطع آغو عليهم الطريق وعيناه المدورتان ترقبان كل حركة منهم وتقدم نحوهم وهو يتجنب قذائفهم وحرابهم أملاً أن يستنفدوا أسلحتهم فيبطش بهم ، وانضم إليه روخ وهو يجري ، فانفتل نوح وهاجم أخاهما الجريح فأسرعا لحمايته ، وأصبح المجال متسعاً أمام نوح وصاحبيه للهرب وصرخ نوح :

– لن يأخذ أبناء الثور النار ، سينال نوح جملا .

جرى الثلاثة في السهل وربما وصلوا إلى القبيلة دون أن يخوضوا معركة ، ولكن نوح أدرك أن اجتناب المعركة يتيح لشقيقي آغو أن تبرأ جراحهما ولا بد له أن يواجههم لئلا يلاقي خطراً أشد وأدهى ولا يشفي من الموت إلا لقاء الموت ذاته . في المرحلة الأولى من المطاردة استطاع نام على الرغم من جراحه أن يسبقهم . وتجاوزهم بحوالي ألف خطوة ، وتوقف نوح قليلاً وأعطى النار لغاو ، وقال لهما :

انطلقا نحو المغرب ولا تتوقفا حتى ألحق بكما ، فأطاعاه . وأبطأ هو من جريه ، ثم التفت وواجه آغو وأخويه ، وهددهما بقوسه ، وحين رآهما يقتربان منه انحرف شمالاً وهرب منهما فتابعاه ، حتى دنا من الأخ الثالث فرشقه بسهم أصاب عنقه وسقط على الأرض ، لاحظ الأخوان أن نوح أسرع منهما وهو يحمل هذه الآلة العجيبة التي ترشق السهام من بعيد .

فأحاطا به وهو يقفز بين الأشجار حتى نال التعب من روخ واشتد نزيف يده ، فالتفت إليه وهجم عليه .

فرفع روخ هراوته بيده اليسرى وضرب بها ناحية نوح فلم يصبه ، فهوى عليه نوح بهراوته فأصابت جمجمته فسقط أرضاً ، فأتبعها ضربة ثانية أصابت عموده الفقري وسقط دون حراك .

وقف نوح وقدمه على جثة روخ ورفع هراوته عالياً وصرخ بآغو :

– أين أخواك يا آغو ؟ ألم أصرعهما كما صرعت الدب الرمادي والنمرة ومفترسي البشر ؟ وها أنا الآن حر كالريح ، قدماي أسرع من قدميك وصدري طويل النفس كأني الميغاسيروس !

فر أمامه وآغو يتبعه ثم قال له :

– نوح لا يهرب ، فإما أن يأخذ روحك أو يموت .

ورمى حربته تجاه آغو فانحنى لها ، ولم تصبه ومرت فوق رأسه وزمجر :

– سيموت نوح .

لم يعد يتعجل فهو مدرك أن خصمه يتحكم في الموقف ، إن شاء دخل المعركة وإن أراد تجنبها ، ولم يفل من عزيمته مقتل أخويه ، إذ أنه أقوى رجال العشيرة كلها ، لم يهزمه إنسان ولا حيوان ولا يعرف الخوف ولا الرحمة ولا شيئاً من هذه المشاعر التي يحس بها الإنسان ، ولكنه لم يستهن بقوة خصمه الأسرع منه حركة ، خصمه الذي عاد إلى العشيرة شخصاً شديد الدهاء ، عريض المنكبين ، قوي الثقة بنفسه لما أحرز من انتصارات .

بعد أن نفدت حرابهما وقفا وجهاً لوجه . وأمسك كل منهما بهراوته المقطوعة من شجر السنديان ، وكانت هراوة آغو ثلاث عقد طويلة تلتمع تحت نور القمر ، وأما هراوة نوح فكانت مدورة قديمة لا لون لها .

لم يضع آغو في الضربة الأولى كل قوته لأنه يريد أن يخادع خصمه فتصدى لها نوح وحرفها عنه ، والتقت الهراواتان . وعلت في الجو أصوات اصطدامهما ، جاءت ضربة آغو الثانية قوية لو أصابت رأس ثور لحطمته ، ولكنها

ذهبت هباءً إذ ابتعد عنها نوح وأرسل ضربة من هراوته تصدى لها آغو فزعزعت قدميه .

وقفا لحظة يتأمل أحدهما الآخر وهو يدري أن حياته معلقة في ضربة قاتلة ، أو حركة طائشة ، أو فرصة ينتهزها عدوه ، وإن قتل فستكون ميتته عاراً عليه . لأنه قضى بيد أخيه في العشيرة . لم يفترسه سبع أو نمر ، ولم يضربه الدب الرمادي . وإن انتصر فلكي يستمر نسل العشيرة من خلال جملا .

وهوى آغو على خصمه بكل قوته ، وهو يطلق زمجرة راعدة ، فتصدى له نوح وحَرَّف ضربته ولكن أصابته عقدة من الهراوة في كتفه ، وفتحت فيه جرحاً ، فتدفق الدم على ذراعه . وكان آغو واثقاً أنه سيدمر هذه الحياة التي حكم عليها بالموت ، فرفع هراوته ليهوي بها ولكن خصمه لم يمهله ، وعاجله بضربة على رأسه تردد صداها كأنها غصن سنديان يتحطم . وترنح جسد آغو فأهوى عليه ثانية فسقط على التراب .

وزمجر المنتصر :

– لن تنال جملا ، ولن ترى العشيرة ولا المستنقع ، ولن تدفئ جسدك بقرب النار ! .

نهض آغو والدم يتدفق من رأسه ويسيل على ذراعه الطويلة كأنها غصن شجرة ، ولم تعد قدماه تحملانه . ولكن الأمل التمع في عينيه التماع الفوسفور . فأمسك هراوته بيسراه ، ولوح بها فوق رأسه فأهوى عليه نوح بضربة ثالثة طوحت به إلى بعد عشر خطوات .

آغو ملقى على التراب ينتظر الموت ، وفي ذهنه تمر صور الحيوانات والبشر الذين قتلهم قبل أن يهوي على الأرض . وهمهم لنفسه :

– لقد قتل آغو أعداءه من حيوان وإنسان ، واستل الحياة من قلوب خصومه ، وكل آل أولمار يهابونه !

كانت تلك صرخة ضميره المظلم الذي لم يعرف الرحمة .

تركه نوح مرمياً ومضى ليجهز على أخويه ، فأحس أن قوة أبناء الثور قد حلت فيه فالتفت ناحية النهر ، وأصغى إلى خفقان قلبه فالزمان ملك يده ولا نهاية له .

11 – في ظلام الدهور

كانت عشيرة آل أولمار تنتظر بقلق رحيل الشمس كل يوم ، وحين يغيب القمر ويغرق الكون بالظلمات يحسون بالبؤس وهم متكدسون داخل المغارات والكهوف ، يسدون مداخلها بالصخور ، ويرتعدون برداً وجوعاً ، ويفكرون بتلك النار التي تبعث الحياة بدفئها ، وتبعد عنهم غائلة الوحوش . ويرقب الحراس المسلحون الأفق وعيونهم تلمع لخفقة جناح ، أو حركة مخلب ، أو هرير وحش ، فهم يعلمون أنه قد يحاط بهم قبل أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فالدب قد افترس محارباً وامرأتين ، واختطفت الذئاب بعض أطفالهم ، وكثير من الرجال يتلمسون آثار الجراح من معركتهم مع الظلام .

أقبل الشتاء فأرسلت ريح الشمال رماحها ، وعض البرد بأنياب حِداد . ذات ليلة ، تقاتل فاوهم مع سبع مفترس اقتلع له ذراعه اليمنى ، فأصبح أضعف من أن يفرض إرادته على العشيرة . وانتشرت فيها الفوضى ، ولم يشأ هاوم أن يطيع

أمره ، وادعى ماوه أنه الأول بين آل أولمار ، وكان لكل منهما أنصاره . وبقيت جماعة قليلة وفية لفاوهم . ولم ينشب صراع مسلح بينهم ، إذ كانوا مدركين ضعفهم ، وقلة حيلتهم دون نار . ففي الليلة الظلماء يفتقدون الرجال ويحتاجون من يدافع عنهم ، وبعد مرور شهور ، وغياب أقمار ، فقدوا الأمل في عودة نوح وصاحبيه ، ورجوع آغو وأخويه . وكم أرسلوا من رواد فعادوا خائبين ! ولقد قتل ستة محاربين بمخالب الوحوش ، فلا حياة لآل أولمار بدون نار .

على الرغم من أن معاناة نساء القبيلة أكثر من رجالها ، إلا أنهن لم يفقدن الأمل في النجاة . وقاومن صابرات لإنقاذ النسل من الدمار . وكانت جملا أكثرهن صبراً ، فلا البرد ولا الجوع نالا من توفز شبابها . ففي الشتاء كانت تجمع شعرها حول رأسها كأنه وفرة الأسد ، وتمضي إلى البراري باحثة عن الجذور والفواكه والفطر تغذي بها قومها .

ولولاها لمات خالها فاوهم بعد أن طرحه السبع في قعر مغارة ، ودمه يسيل من جسده . كانت النار سبيل خلاصها وخلاص القبيلة كلها . فتسائل نفسها : من ذا الذي سيأتي بها ، أهو آغو أم نوح ؟ ولسوف تكون خادمة مطيعة لمن سيحمل الشعلة الملتهبة عالياً ، ولن تأبى أن تكون زوجة المنتصر ، وإن كانت تفضل نوح على خصمه .

حين غابت النار عن القبيلة ، استقوت عليها الوحوش وطاردتها حتى المغائر ، وانتزعت منها المراعي وأماكن الصيد . فسكنت كهفاً واسعاً ، يحميها من حر الصيف ، ولكنه لا يرد عنها برد الشتاء ، وكان غاون شيخ العشيرة ، يرتعد برداً وجوعاً . ويقول :

– لقد رأى غاون أولاده ، وأولاد أولاده ولكنه لا يتذكر أن النار قد غابت عن عشيرة أولمار ، وسيموت غاون قبل أن يرى النار ، وهذه الذئاب قد ضريت بنا ، ولم تعد تهابنا ، فإلى متى صبرنا على الهوان ؟

الحراس يتجولون في زمهرير الليل ، وتحت خفقان النجوم الباردة ، وفجأة توقف أحدهم وهتف :

– من هناك ؟

فقد رأى رجالاً في السهل .

وسرت قشعريرة في العشيرة كلها ، وانتاب الخوف بعضهم ، وعاد الأمل إلى آخرين ، ونهض فاوهم ، وقد تذكر أنه ما يزال زعيم القبيلة ، وقال :

– ليستعد المحاربون !

فأطاعه الرجال بصمت ، ثم أضاف :

– ليأخذ هاوم بضعة رجال ويستطلع القادمين .

وتردد هاوم ، إذ لم يعجبه أن يتلقى الأوامر من رجل فقد قوة ذراعه ، ولكن تدخل الشيخ غاون قائلاً :

– إن لهاوم عيني فهد ، وأذني ذئب ، وأنف كلب ، وسيعرف إن كان القادمون أعداء القبيلة أو أصدقاءها .

فانطلق حينئذٍ هاوم مع ثلاثة من الشباب ، وانتظرت القبيلة زمناً وقلوبها تخفق ، وما لبث أن ارتفع النداء :

القادمون من آل أولمار .

فتحركت قلوب العشيرة ، حتى الأطفال نهضوا من مراقدهم ، وعبَّر غاون عما يختلج في صدورهم إذ سأل :

وهل هم آغو وأخواه ، أم نوح ونام وغاو ؟

وتعالى النداء تحت ضوء النجوم ، إنه ابن الفهد !

وتمتم فاوهم وقد انزاح عن صدره عبء ثقيل :

– إنه نوح ، فقد كان يخشى آغو وسطوته .

وكان الجميع يفكرون في النار ، ولئن جاء بها نوح لأعلوا من شأنه ، وإلا فإن العار ينتظر الضعفاء .

وهاجمت عصابة من الذئاب القبيلة ، واضطرها للجوء إلى كهفها . وانطفأت النجوم تحت سحابة ثقيلة ، وفكر الرجال : أترى تعود إلينا النار لتدفئ قلوبنا وأجسامنا !

وأخيراً ، كان نوح على مرمى البصر ، وزمجر فاوهم :

– النار ... نوح يحمل إلينا النار !

وكانت لحظة رائعة لا توصف ، وتجمد بعض الرجال وكأنما أصابت رؤوسهم ضربة فأس ، وانطلق آخرون هائمين ، يصرخون :

– النار هنا ... النار هنا ...

وكان ابن الفهد يحملها في قفص الحجر ، وهي شعلة صغيرة حمراء ، يقدر طفل على قتلها بقبضة يده ، ولكن الجميع يدركون القوة التي تنبثق من هذا الضعف ، وكانوا يلهثون وهم يتاملونها ليملؤوا منها أبصارهم ، ثم انطلقت من حناجرهم زمجرات الفرح ، حتى هربت الذئاب والكلاب مذعورة ، وتجمعت القبيلة كلها حول نوح ، وهم يفسحون الطريق راكعين ، خاشعين ، لمن يحمل إليهم الحياة .

وحين هدأت حمى الفرح قال غوان :

– لا تخنقوا النار .

فابتعدوا عنها ، واجتمع نوح وفاوهم وجملا ونام وغاو يرأسهم الشيخ غاون ، ومشوا حتى الصخرة ، وجمع الناس كومة من الأعشاب والأغصان اليابسة ، وتقدم ابن الفهد

فأشعل غصناً صغيراً ، ونفخ فيه حتى التهب ، فأضاف إليه أوراق الشجر اليابس فارتفع لسان النار في الهواء ، وما زال يغذيه بالأغصان حتى أصبح ناراً هائلة تلتهم الظلام ، وهرهرت الذئاب والكلاب وقد أصابها خوف مجهول .

وقف نوح أمام الزعيم فاوهم ، وقال :

– لقد أوفى نوح بوعده ، فهل يفي زعيم آل أولمار بما وعد ؟

كانت جملا في أبهى حلة ، تنظر إلى سيد النار وشعرها متناثر على كتفيها ، وقد اجتاحها الإعجاب الذي شمل القبيلة كلها .

فأجابه فاوهم :

– ستكون جملا زوجتك كما وعدتك !

وأكمل غاون كلامه قائلاً :

– وسيحكم نوح القبيلة .

قال هذا لا احتقاراً لفاوهم ، بل ليزيل التنافس الذي قد ينشأ بين نوح وسواه من أفراد القبيلة ، فالآن وقد ولدت النار ، فلا أحد يعارض قوله .

وارتفعت الأصوات بالتهليل والاستحسان .

أما نوح فلم يكن يرى سوى جملا ، وقد زادت حسنها النار الملتهبة التي تتراقص أنوارها على وجهها الصبيح ، وكانت تدري أن المحارب بيد واحدة لا يستطيع تزعم القبيلة ، فقالت :

سيتزعم نوح وفاوهم القبيلة .

ودهش الناس لهذا القول ، وتوقعوا أن ينشب نزاع بين الزعيم وسيد النار ، ولكن فاوهم شعر لأول مرة بحنان غريب لهذا الرجل الذي لم يكن من نسله ، ولا من نسل أخواته .

أما غاون شيخ القبيلة ، فكان يتحرق شوقاً لسماع حكاية نوح وصاحبيه ومغامراتهم ، حتى حصلوا على النار .

فحكى لهم نوح عن الدب الرمادي ، والأسد العملاق والنمرة ، وعن مفترسي البشر والماموث والأقزام والأقزام الحمر والرجال بلا أكتاف والبشر الزرق وعن دب المغارة .

ولكنه لشدة دهائه ، أغفل الحديث عن سر حجارة النار الذي تعلمه من قبيلة الواه .

وكان لهيب النار خير شاهد على صدق حديثه ، ولم يكن بحاجة إلى شهادة نام وغاو اللذين يهزان رأسيهما تصديقاً لقوله . وأعلن غاون :

– لم تعرف القبيلة محارباً مثل نوح ، ولم نسمع بمثله عن أجدادنا .. ولن تلد النساء مثله بعد أجيال وأجيال .

وحين ذكر نوح اسم آغو اقشعرت الأبدان ، فقد كانوا يخشون أبناء الثور ، وسأل فاوهم ونظره شارد في الظلام :

– متى رأيت آغو ؟

فأجابه :

– مرت ليلة وليلة ، كان أبناء الثور يعبرون النهر . ووقفوا أمام الصخرة ليمنعوا نوح ونام وغاو من الوصول إلى القبيلة ، وحاربناهم .

حينئذٍ شمل السكون المكان ، ولم يسمع سوى صوت النار ، وصرخة وحش في المدى ، وقال نوح باعتزاز :

– لقد صرعهم نوح .

وتبادل الرجال والنساء نظرات الدهشة ، وتنازعهم الفرح والشك ، وعبر عن مشاعرهم ماوه ، فقال :

– وهل قتل نوح الثلاثة جميعاً ؟

فلم يجب نوح ، ولكنه جذب جلد دب ، وبسطه أمامهم فرأوا ثلاث أيد دامية ، وقال :

– هذه أيدي آغو وأخويه .

وتأملوها ، إذ لا تخفى عليهم هذه الأيدي المشعرة القوية التي طالما أرعبتهم بقوة بطشها ، أما الأقوياء فيهم فقد تخلوا عن مطامعهم ، وأما الضعفاء فربطوا مصيرهم بمصير نوح ، وأحست النساء باستمرار سلالة القبيلة .

وقال غاون :

– لن يخشى آل أولمار عدواً بعد اليوم .

وجذب فاوهم جملا من شعرها ، وأجبرها على الركوع أمام المنتصر ، وقال :

– هاهي زوجتك ، وقد رفعت حمايتي عنها ، وسوف تركع أمام سيدها ، وتمضي باحثة عن الطرائد التي يصيدها ، وتحملها له على كتفها ، فإذا لم تطعك فاقتلها حالاً .

فوضع نوح يده على كتف جملا ، ثم حملها بهدوء .

وامتد أمامهما زمان لا يحصى عدداً .

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

في عصور ما قبل التاريخ عاشت قبيلة آل أولمار ، وقد هاجمها الأعداء وهزموها ، وسرقوا منها الأقفاص التي تحـتوي على النار، مصدر الحياة.

وانطلق نوح ونام وغاو بحـــثاً عن نار جديدة ، ولاقوا في طريقهم الأهوال . فهل يستعيدون النار من جديد؟.



تصميم الغلاف : هيثم فرحات

